دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر



ف. كورولينكو

الموسيقيّ الأعمى



سلسلة عيون الأدب العالمي

٣٧

ترجمة

سامي الدّروبي

حقوق الترجمة والطبع والنشر والاقتباس
محفوظة
لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - سورية

تعهد
المؤسسة الثقافية
للنشر والتوزيع
بدمشق

الناشرون

دمشق : دار اليقظة العربية : شارع المتنبي هاتف ١٢٢٦٤
القاهرة : مؤسسة الخانجي : شارع عبد العزيز هاتف ٤٣١٤٨
بغداد : مكتبة المثنى : شارع المتنبي هاتف ٨٣٥٨٨
بيروت : المكتبة الشرقية : شارع المعرض هاتف ٣٣٢٣٤

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

١

ولد الطفل في أسرة غنية ، بالجنوب الشرقي ، في ساعة متأخرة من الليل • كانت الأم متمددة ، متخدرة ، فلما دوت في الغرفة صرخة الوليد الأولى ـ ناعمة متأوهة ـ أخذت الأم تضطرب في فراشها مغمضة العينين • ودمدمت شفتاها بكلام ، وظهر على وجهها الشاحب ، الناعم القسمات ، الذي يكاد يكون وجه طفل ، علائم ألم تضيق المرأة به ، كما يضيق طفل مدلل بحزن يشعر به ، ولم يألفه من قبل •

وقربت المولدة أذنيها من شفتي الأم الشابة المدمدمتين • قالت المريضة بصوت لا يكاد يسمع :

ـ مابه ؟ لماذا ؟

فلم تفهم المولدة السؤال • وصرخ الطفل مرة أخرى • فطاف بوجه الأم ألم حاد ، وانحدرت من عينيها المغمضتين دمعة كبيرة •

ـ لماذا ؟ لماذا ؟

بهذا دمدمت شفتا المرأة بصوت رقيق ، كما في المرة الأولى •

ـ تسألين لماذا يبكي الطفل ؟ ولكن الأمر دائما هكذا • اطمئني بالا •

ولكن الأم لم تستطع أن تهدئ روعها • فكانت ترتعش كلما صرخ الطفل صرخة جديدة •

وما انفكت تكرر بلهجتها التي تنم عن نفاد الصبر وعن التهيج ، قائلة :

Twitter: @ketab_n

ـ لماذا يصرخ على هذه الصورة ... الموجعة ؟

أما المولدة فلم تسمع في صراخ الطفل شيئا غير مألوف ، فلما رأت أن الأم تتكلم كأنها في حلم ، أو كأنها تهذي ، أصبحت لا تلتفت اليها ، وأخذت تعنى بالطفل وحده .

وصمتت الأم الشابة . ومن حين الى حين ، كان الألم الشديد الذي لا يمكن أن تعبر عنه الحركات ، ولا أن تفصح عنه الكلمات ، يفجر من عينيها قطرات من الدمع كبيرة ، تنفذ من خلال أهدابها السوداء الكثيفة ، وتجري على خديها هادئة ، شاحبة ، كالمرمر .

لعل قلب الأم كان يشعر أنه قد ولد مع الطفل مصير يسر الى شقاء غامض لا مخرج منه ، يرفرف الآن فوق المهد ، وسيشيع هذه الحياة الجديدة حتى اللحد .

قد لا يكون هذا الشعور الا نتيجة الهذيان ! ومهما يكن من أمر ، فقد ولد الطفل أعمى .

٢

لم يلاحظ أحد ذلك في أول الأمر . لقد كانت نظرة الطفل كابية غير محددة ، وهذا شأن جميع الأطفال منذ يولدون الى أن يبلغوا سنا معينة . وتعاقبت الأيام ، وأصبح عمر الانسان الجديد يعد بالأسابيع . فاتضحت عيناه ، وزالت عنهما الغشاوة اللبنية التي كانت تغطيهما ، وظهر البؤبؤ . ولكن الطفل كان لايدير رأسه حين يدخل الى الغرفة شعاع مضيء حي ، مع زقزقة العصافير الفرحة ، وحفيف شجرات الزان الخضراء التي تتأرجح قرب النوافذ في الحديقة الكثيفة . وكانت الأم قد أبلت واستعادت عافيتها فلاحظت أول من لاحظ ، هذا التعبير الغريب في الوجه الصغير الذي يظل

Twitter: @ketab_n

ساكنا دائما ، لا يتناسب ما فيه من جد مع عمر الطفل ، لاحظت ذلك ، فشعرت بكثير من القلق .

فكانت المرأة الشابة تنظر الى الناس كحمامة جزعة ، وتسأل :

ـ قولوا ، لماذا هو كذلك ؟

فكان الغرباء الذين لا يعنيهم الأمر ، ولا يحفلون به ، يجيبونها قائلين :

ـ ماذا ؟ ليس فيه ما يميزه عن غيره من الأطفال في هذه السن ...

ـ ولكن انظروا الى هذه الهيئة الغريبة ! لكأنه يبحث عن شيء بيديه !

قال الدكتور :

ـ ان الطفل لا يعرف ، بعد ، كيف يوفق بين حركات يديه وبين احساساته البصرية .

فصاحت الأم ، وقد راودت قلبها الشبهة الرهيبة على حين فجأة :

ـ اذن لماذا لا ينظر الا في اتجاه واحد ؟ أهو ... أهو أعمى ؟

ولم يستطع أحد أن يهدئ روعها .

فحمل الدكتور الطفل بيديه ، وأداره نحو الضوء بقوة ، ونظر في عينيه ، فاضطرب قليلا ، وبعد أن قال بضع عبارات لا معنى لها ، مضى على أن يعود بعد يومين أو ثلاثة أيام .

كانت الأم تبكي وتضطرب كطير جريح ، وهي تشد ابنها الى قلبها ، ولكن عيني الصغير لم تتغير نظرتهما الباهتة الساكنة .

ولم يخلف الدكتور الميعاد ، فجاء بعد بضعة أيام يصحبه طبيب من أطباء العيون ، فأشعل هذا شمعة كان يقربها من عيني الصبي تارة ويبعدها عنهما تارة ، ثم نظر في قاع البؤبؤين ، وقال أخيرا في شيء من الارتباك :

ـ يا سيدتي ... لم يخطئ ظنك ، فالطفل أعمى حقا ، ولا

Twitter: @ketab_n

أمل في برئه ...

وسمعت الأم التشخيص في حزن هادئ ، وقالت في نعومة :

ـ أعرف ذلك منذ مدة طويلة .

٣

لم تكن الأسرة التي ولد فيها الأعمى كثيرة العدد : فهناك الأم وابنها والأب و « العم مكسيم » كما كان يسميه جميع من في البيت بلا استثناء ، وحتى الغرباء . كان الأب يشبه ألوفا غيره من المزارعين في الجنوب الغربي : رجلا طيب القلب ، منهمكا في مراقبة عماله، يحب كثيرا أن يبني الطواحين وأن يعيد بناءها . وكانت أعماله تستنفد كل وقته تقريبا، لذلك كان لا يسمع صوته في البيت الى في مواعيد الغداء والعشاء وما شاكل ذلك ، فكان يكرر عندئذ هذه العبارة « كيف أنت يا عزيزتي ؟ » ، ثم يجلس الى المائدة ، ولا يكاد يقول شيئا . وكان من حين الى حين ، في النادر القليل ، يتحدث عن مساطح السنديان ، وبذور الصنوبر . كان واضحا اذن أن هذا الرجل المسالم البسيط لا يؤثر أي تأثير تقريبا في حالة ابنه النفسية .

أما « العم مكسيم » فكان انسانا مختلفا عنه كل الاختلاف . كان العم مكسيم ، قبل هذه الأحداث التي نرويها بعشر سنين ، يعد أخطر مخاصم لدود ، لا في المنطقة التي تقع فيها أرضه فحسب، بل أيضا في كييف ابان « العقود » (١) فكان لا يفهم أحد كيف يمكن أن يكون هذا الشخص الشرس أخا للسيدة بوبلسكا (واسم أسرتها ياستنكو) التي تنتمي الى أسرة عريقة كريمة ،

(١) بهذا الاسم كان يسمى سابقا معرض كييف الشهير

Twitter: @ketab_n

ولا يعرف أحد كيف يتصرف معه ، ولا كيف يرضيه • كان يرد على ملاطفات النبلاء بشراسة ووقاحة ، مع أنه كان يغفر للفلاحين (الموجيك) فظاظات فظيعة من شأنها أن تخرج أحلم الناس وأوسعهم صدرا عن طوره ، فيرد عليها بالضرب والصفع • ولا يدري أحدا كثيرا لماذا تميز العم مكسيم غيظا من النمسويين واستبد به كرههم (وهذا ما أفرح جميع الناس الذين يفكرون تفكيرا راجحا) ، حتى سافر الى ايطاليا والتحق برجل لا يقل عنه حبا للمشاجرة وامعانا في الزندقة ، هو غاريبالدي الذي تحالف مع الشيطان وتحدى البابا ، على ما يقول الملاكون الزراعيون • وطبيعي أن مكسيم قد ضيع بسلوكه هذا روحه الطائشة العاصية • ولكن في مقابل ذلك أصبحت « العقود » تمر بسلام دون كثير من الفضائح ، وأصبحت الأمهات في كثير من الأسر النبيلة أقل قلقا على مصير أبنائها •

وبديهي أن النمسويين كانوا ، هم أيضا ، حانقين على العم مكسيم • حتى أن جريدة « الأنباء » ، وهي الجريدة التي يؤثرها الملاكون في المنطقة ، كانت تذكر اسمه بين أشد أنصار غاريبالدي ضراوة • وفي ذات صباح أعلنت هذه الجريدة نفسها للناس جميعا أن ماكسيم قد سقط عن حصانه في احدى المعارك ، وأن النمسويين الذين يحقدون منذ مدة طويلة على هذا الثائر الجامح الذي ظل غاريبالدى صامدا بفضله (هذا على الأقل ما كان يذهب اليه مواطنو العم مكسيم) ، قد ثارت ثائرتهم ، فانقضوا عليه ، وقطعوه اربا اربا ، كما يقطع رأس من رءوس الملفوف • وقال الملاكون لأنفسهم يومئذ :

ــ بئس المصير •

وعزوا ذلك الى أن القديس بطرس قد تدخل لمعاونة خلفه ،

Twitter: @ketab_n

واعتقدوا جميعا أن مكسيم مات •

ولكن الواقع هو ان السيوف النمسوية لم تظفر بأن تطرد روح مكسيم العنيدة ، فبقيت روحه في جسمه ، رغم أن الجسم أصبح في حالة سيئة جدا • فان رجال غاريبادي المثيرين للفتن قد جروا رفيقهم الشجاع من المعركة ، ونقلوه الى المستشفى • وبعد بضع سنين فوجئ الناس بعودة مكسيم الى بيت أخته ، حيث استقر نهائيا •

وأصبح منذ ذلك الحين لا يفكر في مقاتلة أحد • لقد قطعت فخذه اليمنى ، وأصبح يتوكأ على عكازة ، كما أن ذراعه اليسرى قد أصيبت بأذى كبير ، حتى أصبحت لا تصلح لأكثر من الاستناد بها الى عصا على نحو من الأنحاء • ولقد أصبح الرجل أكثر رصانة على وجه العموم ، وهدأ باله ، وأصبح لسانه السليط لا يقذع الا من حين الى حين ، فاذا هو عندئذ حاد قاطع ، كشأنه في الأيام الخوالي • وأصبح لا يذهب الى « العقود » ، ولا يظهر في المجتمع الا نادرا ، وأصبح ينفق معظم وقته في مكتبته بين كتبه التي لا يعرف عنها أحد شيئا ، ولكن يظن أنها كتب الحاد وزندقه • حتى لقد كان يكتب في بعض الأحيان ، ولكن لما كانت كتاباته لا تنشر في جريدة «الأنباء» ، فقد كان لا يهتم بها أحد كبير اهتمام •

وفي الفترة التي ولد فيها مخلوق جديد في البيت الريفي الصغير ، وأخذ ينمو ويترعرع ، كانت خيوط من الفضة قد أخذت تلمع هنا وهناك في شعر العم مكسيم الذي كان يحلق شعره قصيرا • وكان كتفاه اللذان يتوكأن دائما على عكاكيز ، قد نهضا الى فوق ، وأصبح يبدو جسمه كله مربعا • وكان مظهره الغريب الكئيب ، وحاجباه المقطبان ، وقرقعة عكاكيزه ، والدخان الذي يلفعه دائما لأنه يدخن الغليون بلا انقطاع ، كل ذلك كان يرعب الغرباء ، وما كان أحد غير الذين يعيشون معه ، يعرف أن قلبا نبيلا يخفق في هذا

Twitter: @ketab_n

الجسم الأشوه ، وأن عقلا لا يتعب كان يعمل في هـذا الـرأس الضخم المربع الذي يغطيه شعر كثيف أشعث ٠

ولكن أقـرباءه أنفسهم كانوا يجهلون المشكلـة التي كـانت تستغرقه في تلك الأيام ، وانما كانوا يرون العم مكسيم ملفعا بدخان أزرق ، يجلس ساعات طوالا لا يتحـرك ، متجهم الوجـه ، قلق النظرة ، مقطب الحاجبين ٠ كان المحارب الذي قطعت ساقه يرى أن الحياة نضال لا هوادة فيه ولا رحمـة ، فلا محل في هذه الحيـاة للمشوهين ٠ وكان يخطر بباله دائما أنه قد طرد الى الأبد من صفوف أولئك الذين يناضلون،وأن من العبث أن يظل يزعج الناس بوجوده، هو الفارس الذي جردته الحياة من سلاحه ، ورمته في الرغام ٠ وكان يتساءل : هل يجب حقا أن يظل يتحرك ، كدودة سحقتهـا الأقدام على الأرض ، ؟ هل يليق به أن يتمسك بركاب الحياة التي تواصل سيرها المظفر ، وأن يسألها مننا أخيرة ؟

ولكن بينما كان العم مكسيم يفكـر في هذه المشكلة المضنة المحرقة بشجاعة ورباطة جأش وعمق ، وبينما كان يزن كل مـا للأمر وما عليه ، ولد مخلوق جديد ، أشوه منذ اليوم الذي جاء فيه الى الدنيا ، فأخذ يشغل العم مكسيم ٠ لم يلتفت للطفل الأعمى في أول الأمر كثيرا ، ولكنه أخذ بعد ذلك يفكر في الشبه الغريب بين حظه وحظ الطفل ٠ قال في نفسه ذات يوم ، وهو مغرق في التفكير ، وقد اختلس نظرة الى الطفل :

ـ هم ٠٠٠ هم ٠٠٠ هذا الصغير المسكين هو أيضا أشوه ٠ ولو أمكن الجمع بيننا فقد يمكن أن يخرج منا نحن الاثنين رجل يصلح لشيء من الأشياء ٠

ومنذ ذلك الحين أصبح بصره أكثر التفاتا الى الطفل الأعمى٠

Twitter: @ketab_n

٤

لقد ولد الطفل أعمى • هذا ذنب من ؟ ليس ذنب أحد • ليس في هذا الأمر أية « نية سيئة » • ان سبب الآفة نفسه يكمن في شيء مجهول ثاو في أعماق العمليات الخفية المعقدة من الحياة • كان قلب الأم يتفطر لوعة وحسرة كلما نظرت الى الطفل الأعمى •• وواضح أنها كانت تتألم ألم الأم من شوهة ابنها ، ومن شعورها الحزين بالمستقبل التعيس الذي ينتظره ، ولكنها ، فيما عدا هذه المشاعر ، كانت في أعماق نفسها تعاني عذابا عظيما ، اذ تتصور أن سبب المرض قد يكون فيمن جاءوا بالطفل الى الحياة • من أجل هذا أصبح المخلوق الجديد ، ذو العينين الجميلتين ولكن العمياوين ، قلب الأسرة كلها ، تأتمر بأمره ، وتخضع لأي نزوة من نزوات المستبد الصغير الذي لا يعي •

ماذا كان يصبح هذا الطفل الذي تهيئه آفته لشراسة ليست بذات غرض ، والذي تحرص بيئته على أن تنمي فيه العواطف الأنانية ، لو أن القدر العجيب وسيوف النمسويين لم تحمل العم مكسيم على العودة الى بيت أخته بالريف ؟

ان وجود الطفل الأعمى في البيت قد فرض ، شيئا فشيئا ، وعلى نحو لا يكاد يلاحظ ، اتجاها جديدا ، على فكر الجندي الأبتر ، الذي لا يكل من التفكير • فكان ، كعهده من قبل ، يبقى ساعات طوالا ، ساكنا ، يدخن ، ولكن عينيه تعبران الآن ، في قلب الألم

الأصم العميق ، عن الانصراف الى الملاحظة والمراقبة • وكان كلما أمعن في الملاحظة ، أمعن جبينه في التغضن وأمعن هو في التدخين • وفي ذات يوم حزم أمره على التدخل • قال ، وهو يقذف من فمه سحابة من الدخان بعد سحابة :

Twitter: @ketab_n

ـ هذا الصغير ، سيكون أشقى مني • ليته لم يولد ، اذن لأعفى من هذا الشقاء كله •

فقالت الأم بصوت خافت :

ـ من القسوة علي أن تقول لي ذلك يا ماكس • فيم يجدي أن تقول هذا الكلام •

فأجاب مكسيم :

ـ ولكنني أقول لك الحقيقة ، ولا شيء غير الحقيقة • أنا تعوزني ساق وذراع ، ولكن لي عينين • أما الطفل ، فليس له عينان ، ومعنى ذلك أنه لن تكون له لا ساق ، ولا ذراع ، ولا ارادة •••

ـ لماذا ؟

فقال مكسيم بلهجة أرق :

ـ حاولي أن تفهميني يا آنا • لن أقول أبدا كلاما قاسيا ، حبا بالكلام القاسي • ان هذا الطفل مزود بجملة عصبية مرهفة جدا ، ولا يزال يمكنه أن ينمي ملكاته انماء يتدارك عماه ببعض التدارك • ولكن لا بد له من التمرن ••• وهذه الرعاية الغبية التي تجنب الطفل كل جهد تقتل فيه جميع ما يمكنه من حياة أكمل •

وكانت الأم ذكية ، فاستطاعت أن تتغلب في نفسها على الاندفاع العفوي الذي كان يجعلها تهرع نحو الطفل طائشة الصواب ، متى سمعت صوته الشاكي • وما هي الا بضعة أشهر ، حتى أصبح الصبي الصغير يزحف في البيت بهمة وحرية ، يرهف سمعه لكل صوت يسمعه ، ويلمس كل ما يقع تحت يديه من أشياء ، بنشاط لا يعرف مثله في غيره من الأطفال •

Twitter: @ketab_n

٥

وسرعان ما أصبح يعرف أمه من خطواتها ، ومن حفيف ثوبها، ومن علامات أخرى لا يدركها غريب . فاذا هو ، مهما يكن عدد الأشخاص في الغرفة ، ومهما تكن تنقلاتهم ، يتجه دائما الى حيث تكون أمه ، دون أن يخطىء في ذلك قط . واذا أمسكت أمه بذراعه فجأة ، عرفها ، فورا ، فاذا كان الشخص غير أمه ، أخذ يطوف بيده الصغيرة على وجهه بسرعة ، فاذا هو يعرف أنه مربيته أو أبوه أو العم مكسيم . أما اذا كان الشخص غريبا فانه يتفحصه على هذا النحو بمزيد من البطء ، فهو يطوف بيديه على الوجه الغريب في حذر وانتباه ، وتعبر قسماته عندئذ عن توتر داخلي ، كأنه « ينظر » بأطراف الأصابع ...

وكان الطفل بطبيعته نشيطا كثير الحركة ، ولكن الأشهر تتعاقب ، فاذا العمى يزداد ظهورا في مزاج الطفل الذي أخذ يدرك نفسه ، فصارت قوة حركاته تتناقص تدريجيا ، وصار ينزوي الى أركان بعيدة يقضي فيها ساعات كاملة دون أن يتحرك ، وقد تجمدت قسمات وجهه كأنه يصغي الى شيء . واذا كانت الغرفة خالية من الناس ، وأصبح تتابع الأصوات المختلفة لا يسلي انتباهه ، بدا غارقا في تأملاته وارتسمت علائم الدهشة وعدم الفهم على وجهه الجميل الذي لا يتناسب سن الطفل مع ما يلوح فيه من جد وصرامة .

لقد كان العم مكسيم على حق . ان جملة الطفل العصبية ، وهي غنية مرهفة ، تنتصر ، حتى لكأنه يحاول أن يسترد بدقة السمع واللمس ، كمال احساساته . وكان جميع الناس يعجبون بلطافة حاسة اللمس عنده بوجه خاص . حتى ليوهم أحيانا بأنه يدرك

Twitter: @ketab_n

الألوان . اذ كان ، حين تلمس يداه أطراف نسيج ذي ألوان قوية ، يبقى أصابعه مدة أطول،ويعبر وجهه عن انتباه أشد.ولكن اتضح شيئا فشيئا ان حدة احساسه كانت تنمو في ميدان السمع بوجه خاص .

وسرعان ما أصبح يعرف كل اشياء البيت من صوتها الخاص . وكان يميز خطوات أهله ، وخطوات الخدم ، وقرقعة كرسي خاله الأبتر ، وحسيس الخيط في أمه جافا مطردا ، ودقات الساعة في الجدار رتيبة منتظمة . وكان في بعض الاحيان يزحف على حذاء الجدار ، يصيخ بسمعه الى صوت خفيف لايدركه آخرون ، وتمتد يده الصغيرة في الهواء نحو ذبابة تتنزه على الحائط . فاذا جفلت الذبابة وطارت عبر وجهه عن شعور واحد لايتغير ، هو الانزعاج والاستغراب . كان لايستطيع ان يتصور اختفاء الذبابة هذا العجيب. ولكنه بعد ذلك ، صار وجهه في مثل هذه الحالات ، يحتفظ بتعبيره عن الانتباه اليقظ ، فكان يدور برأسه نحو الجهة التي طارت اليها الذبابة ، وكان سمعه الدقيق يدرك دندنة جناحيها الخفيفة في الهواء .

ان الكون الذي يتلألأ من حوله ويتحرك ويصوت ، يدخل معظمه الى رأسه الصغير في شكل أصوات ، وفي هذا الشكل صبت تصوراته . وكان من شأن هذا الانتباه الخاص الى الاصوات ان اسبغ على وجهه طابعا خاصا : ففكه الاسفل يستطيل قليلا فوق عنقه الدقيقة الطويلة ، وحاجباه يتحركان كثيرا ، وعيناه الجميلتان العمياوان تضفيان على قسماته كلها طابعا قاسيا مؤثرا في آن واحد .

٦

انتهى الشتاء الثالث من حياته . وأخذ الثلج يذوب في فناء المنزل ، وطفقت سواقي الربيع تدندن ، وتحسنت صحة الطفل الذي ظل طوال الشتاء مريضا بعض الشيء لازما غرفته لايبرحها .

Twitter: @ketab_n

رفعت النوافذ الداخلية ، واقتحم الربيع الغرفة • كانت الشمس الفتية تنظر ضاحكة الى الزجاج الغارق في الضياء • وكانت أغصان اشجـــار السنديان تتثنى وهي ماتزال عارية من الاوراق ، وكانت الحقول تظهر من بعيد سوداء ، تغطيها هنا وهناك بقع بيضاء من الثلج الذي يذوب ، وقليل من العشب الغض ينبت ولا يكاد يرى • ان كل شيء يتنفس الآن براحة ، وكل انسان يشعر بتيار عارم من القوى الجديدة يتدفق فيه •

أما الطفل الأعمى ، فكان الربيع لا يظهر له الا اصواتا تسرع ••• كان يسمع جريان مياه الربيع التي تتواثب عـــلى الحصى ، ثم تختفي في الارض الدافئة الرخصة • وكانت أغصان شجرات السنديان تتهامس وراء النوافذ ، وتتشابك وتطرق الزجاج طرقا خفيفا •

وكانت قطع الجليد التي علقها صقيع الصباح في السطح ، تذوب تحت أشعة الشمس ، فتتساقط آلاف القطرات المتلألئة سريعة ذات صوت ، فتسمع في الغرفة كأنها برد من حصى صغـيرة • وكانــت تسمع من حين الى حين ، خلال هذه الاصوات كلها ، زقزقات اسراب الغرانق من بعيد ، وهي تتهاوى من السماء على مهل ، كأنها تذوب في الهواء الهويني •

ان انبعــاث الطبيعة هــذا كان يتجلى على وجه الطفل بتوتر مؤلم ، فكان الطفل يقطب حاجبيه بجهد ظاهر ، ويمط عنقه ، ويصيخ بسمعه ، ويمد ذراعيه الصغيرتين ، في زحمة هذه الجلبة التي لا يفهمها ، يبحث عن أمه ، ويندفع اليها ، ويشد نفسه الى صدرها • فكانت الأم تسأل نفسها وتسأل غيرها قائلة :

ـ ماله ؟ مابه ؟

وكان العم مكسيم يتفرس في وجه الصبي الصغير ، ولا يفهم هذا الذعر غير المتوقع •

Twitter: @ketab_n

وأدركت الأم أخيرا ، فقالت وهي ترى على وجه ابنهـا ذلك التعبير نفسه عن الضيق والدهشة :

ـ انه ... لا ... يفهم ..

نعم ، لقد كان الطفل قلقا : فهو تارة يميز أصواتا جديدة ، وتارة يدهشه أنه لا يسمع الأصوات القديمة التي أخذ يألفها ، والتي تصمت الآن فجأة ، وتغيب .

٧

وسكنت جلبة الربيع أخيرا . ودخل عمل الطبيعة ، تحت أشعة الشمس ، في دولابه المألوف . ان الحياة تزداد انتشارا ، وان مسيرها يزداد كل يوم سرعة ، كأنه مسير قطار يستحث الخطى ... وهذه أعشاب فتية تزهو مخضوضرة في المراعي ، والهواء معطر بالعبق من براعم أشجار البتول .

وقرر أهل الصبي أن يخرجوا بـه الى الحقول ، على ضفـة النهر القريب .

فقادته الأم من يده ، وسار العم مكسيم الى جانبها يعرج على عكازتيه . ومشى الثلاثة في الطريق الى هضبة مجاورة ، قد جففتها الشمس وجففها الهواء قليلا ، وغطاها عشب ناعم كثيف ، وهي تطل على منظر رائع يمتد في الفضاء الفسيح الى غير نهاية .

لقد خطف بريق النهـار أعين الأم والعم ، وكانت أشعـة الشمس تدفئ خديهما ، ولكن هواء الربيع يطرد الدفء بأجنحتـه التي لا ترى ، ويحل محله طراوة ناعمة لذيذة . كان يرفرف في الجو شيء يسكر ... يسكر حتى الاسترخاء ، حتى الخدر .

وأحست الأم بيد الصبي تشد على يدها . ولكن نسمة الربيع

Twitter: @ketab_n

المسكرة جعلتهـا أقل انتباها الى هذه الحركة الدالة على القلق في طفلها • كانت تتنشق الهواء ملء رئتيها ، لا تلتفت الى شيء ، ولو التفتت لرأت على وجه طفلها تعبيرا لم تر مثله من قبل • كان الطفل قد أدار عينيه الى الشمس واسعتين كبيرتين ، تفيضان بدهشة خرساء، وفتح شفتيه ، وأخذ ينشق الهواء بسرعة ، كسمكة أخرجت من الماء • ان نشوة مؤلمة تظهر في وجهه الحائر أحيانا ، فتشرق بهـا قسماته لحظة ، ثم ما تلبث أن تحل محلها الدهشة ، دهشة تشبـه أن تكون خوفا وحيرة تامة • كانت عيناه وحدهما تخيفان بنظرتهمـا الهامدة الفارغة •

فلما وصلوا الى الهضبة جلسوا جميعا • حتى اذا أنهضت الأم ابنها عن الأرض لتصلح جلسته طلبا للمزيد من راحته ، تعلق الطفل بثوبها بحركة عنيفة ، كأنما أحس الأرض تخسف من تحته ، فخشي أن يهوي • وفي هذه المرة أيضا لم تلاحظ الأم حركة الطفل القلقة ، اذ كان بصرها واهتمامها غـارقين تمـاما في اللوحـة الخلابـة التي يرسمها الربيع •

كان الوقت ظهرا • وكانت الشمس تجري في السماء الزرقاء على هون ورفق • ومن على الهضبة التي جلسوا عليها كان يرى امتداد النهر الفائض • كان النهر قد تخلص من كتل الجليد التي يحملها ، ومن حين الى حين تسقط على صفحة الماء قطع أخيرة من الثلـج كالبقع البيضاء ، فتذوب • وكان الماء ينتشر على المـروج المغمورة سماطا واسعة عريضة ، تنعكس في أعماقها غمامات بيضاء ، كما نرى في قاعها قبة السماء مقلوبة ، كأن الغمامات تسبح في أغوارها • وكانت الغمامات تختفي شيئا فشيئا ، كأنها تذوب هي الأخرى ، على غـرار قطع الجليد • وكانت ريح خفيفة تغضن أحيانا وجه الماء الذي يتلألأ في الشمس • ومن بعيد وراء الضفة الأخرى من النهر ، تمتد حقول

Twitter: @ketab_n

سوداء ، تخرج منها الأبخرة ، فتكسو بغلالة رقيقة متموجة ، الأكواخ البعيدة المغطاة بالتبن ، وأفق الغابات الأزرق • كأن الأرض كانت تزفر وترسل الى السماء قبابا من البخور •

كانت الطبيعة تمتد في كل جهة كمعبد في غداة عيد • ولكن الأعمى كان لا يشعر بهذا كله الا ليلا بهيما لم يتغير منه شيء•الا أنه يضطرب اضطرابا لا عهد للطفل به من قبل ، ويتحرك بلا انقطاع ، ويهدر ويطن ويقترب منه • ان احساسات مجهولة ، لا عهد له بها تهاجمه من كل جانب ، وكان قلب الطفل يخفق أمام تيارها خفقانا موجعا •

منذ أن سقطت أشعة الشمس الناعمة على وجهه ، ودفأت جلده الرقيق ، أدار عينيه نحو الشمس بغريزته : كان يشعر أنها هي المركز الذي يدور حوله كل ما يحيط به • لم يكن هنالك بالنسبة اليه لا أبخرة بعيدة ، ولا قبة لازوردية ، ولا آفاق واسعة • ولكنه كان يحس بشيء مادي يلامس خده ، شيء حار كدغدغة ، ثم بشيء طري خفيف أخف من حرارة أشعة الشمس ، يطوف على وجهه ببرودة منعشة لذيذة • ولقد تعود الطفل أن يتنقل في البيت حرا طليقا ، وأن يحس بالفراغ من حوله ، أما هنا فان موجات عجيبة التغير تمسك به ، مدغدغة ناعمة تارة ، مهيجة مثيرة تارة أخرى • وقبلات الشمس ما تلبث أن تطردها النسمة التي تهب ، وتيار من الهواء يدندن في أذنيه ، ويلف وجهه وصدغيه ورأسه حتى العنق ، ويدور حوله كأنه يحاول أن يرفعه وأن ينقله الى جهة في المكان لا يراها ، وهو يهدهد شعوره ، ويغرقه في نسيان خدر•في تلك اللحظة انما شدت يد الفتى يد الأم ، وتداعى قلبه حتى لكأنه يوشك أن يقف عن الخفقان •

فلما جلس على الأرض هدأ قليلا • فقد استطاع الآن ، رغم الاحساس الغريب الذي اجتاح كيانه كله ، أن يميز الأصوات •

Twitter: @ketab_n

ان الأمواج الدافئة الحلوة ما تزال تدور عنيفة عاصفة ، وقد أحس أنها تنفذ الى داخل جسمه ، لأن ضربات دمه المضطرب كانت تبطيء أو تسرع تبعا لبطء هذه الأمواج وسرعتها ، ولكنها الآن تحمل معها تغاريد قبرة يدركها الصبي واضحة متميزة ، أو حفيفا مختنقا من أغصان بتولة أخذت تورق وتخضوضر ، أو خرير مياه النهر الذي لا يكاد يدرك . وهذا سنونو يرفرف مصفقا بجناحيه ، ويدور ثم يدور كما يحلو له الدوران ، وهذه ذبابات صغيرة تدندن ، وهذا فلاح في الحقل يستحث أبقاره بصياح بطيء حزين ، من حين الى حين ، فيغطي صوته تلك الأصوات كلها .

ولكن الطفل لم يكن يفهم هذه الجلبة كلها ، وهذه الأصوات كلها ، ولم يكن يستطيع أن يضمها بعضها الى بعض ، وأن يساوق بينها . لكأن هذه الأصوات حين تنفذ الى رأسه الصغير المظلم ، تهوي الى قاعه ، واحدا بعد واحد ، عذبة مبهمة تارة ، مدوية مصمة تارة أخرى . وكانت تلتقي جميعها في بعض الأحيان ، معا ، وتتمازج ، فتكون خليطا من الأصوات المتنافرة ، يزعج كما لا يفهم ! وان الريح التي تهب من السهل ما تزال تدوي في أذني الصبي ، وكان يحس أن أمواجها يتسارع تدفقها ، وان صوتها يطفيء الان جميع الاصوات الأخرى التي تبدو عندئذ آتية من عالم آخـر ، كأنها من ذكريات الامس وكلما ازدادت الأصوات اصماما للأذن ، تسرب الى صدر الفتى ضنى مثير ، فكان يتصعر وجهه ، بحركات تتكرر على ايقاع ، كان يغمض عينيه تارة ، ويفتحهما تارة أخرى ، وكان حاجباه يتحركان ، قلقين ، وكانت جميع قسمات وجهه ، تعبر عن تساؤل أخرس ، وعن جهد اليم في الفكروالخيال وأخذشعوره الضعيف الطافحبالاحساسات ينوء عياء وكللا . لقد حاول أن يكافح هذه الاحساسات التي تغزوه من كل صوب ، وأراد أن يقاومها ، وان ينسقها ويوفق بينها ، من

Twitter: @ketab_n

أجل أن يسيطر عليها ، وان يتغلب عليها ، ولكن هذه المهمة كانت أصعب من أن يقوم بها دماغه المظلم ، التي تعوزه الاحساسات البصرية اللازمة لهذا العمل •

والأصوات تغزوه واحدا بعد آخر ، متنوعة أشد التنوع صاخبة أشد الصخب ، والأمواج التي تجتاحه ، ما تزال تزداد عنفا ، تأتي من الظلمات الهادرة ، وسرعان ما تغيب في ذلك الليل نفسه ، لتحل محلها موجات جديدة ، وأصوات جديدة ، انها تؤرجحه ، وتنهضه بسرعة ، ما تني تزداد ، وترفعه في كل لحظة الى أعلى ، باندفاعة توجعه وتؤلمه ، وها هي زي صيحة انسانية ، طويلة حزينة، تعلو جميع هذه الأصوات المتلاطمة التي أخذت تنطفىء ، ثم صمت فجأة كل شيء •••

لقد تأوه الطفل تأوها هادئا ،وانقلب على العشب ، وتنظر اليه أمه ، فتطلق صرخة حادة • كان شاحبا مستلقيا على الأرض في اغماء عميق •

٨

فوجىء العم مكسيم كثيرا بهذا الحادث الذي ينذر بالخطر ، لقد استقدم منذ مدة كتبا في علم وظائف الأعضاء ، وفي علم النفس وفي علم التربية ، وانصب بنشاطه المعهود ، على دراسة كل ما يطلعنا عليه العلم عن نمو نفس الطفل ، هذا النمو العجيب •

وكان هذا العمل يأسره ، يوما بعد يوم ، حتى أن الأفكار السوداء التي كانت تراوده بصدد آفته ، وعجزه عن النضال في الحياة ، وتأملاته في « الدودة التي تزحف في التراب » كانت قد تبخرت شيئا فشيئا ، من الرأس المربع لهذا المحارب القديم ، وأخذت

Twitter: @ketab_n

نضطرب في محلها أفكار جديدة ، هي ثمرة تأمل طويل ، حتى أن أحلاما وردية زاهية ، أخذت تشرق في قلبه العجوز من حين الى حين . لقد اقتنع العم مكسيم بأن الطبيعـة التي منعت البصـر عن الصبي ، لم تحرمه من الحواس الأخرى ، انه مخلوق يستجيب لجميع الاحساسات الخارجية التي يمكن أن ترقى اليهـا ملكاته ، استجابة تامة ، بقوة تلفت النظر . وأخذ العم مكسيم يعتقد أنه مدعو الى أن ينمي مواهب الطفل الطبيعية ، وان يعدل ظلم القدر بجهد فكره وبتأثـيره ، وأن يعود الى صفوف أولئك الذين يناضلون في سبيل القضايا النبيلة ، بهذه الجندية الجديدة التي ما كان ليعتمد عليها أحد لولا أنه تدخل ، هو الأبتر .

كان يقول الغاريبالدي العجوز لنفسه « من يدري ؟ ان الانسان يستطيع أن يكافح بغير الرمح والسيف ، وهذا الطفل الذي جرحـه القدر ظلما قد يشهر ذات يوم السلاح الذي يقدر عليه ، من أجل أن يحمي هؤلاء البشر الفقراء ، وعندئذ لا أكون أنا الجنـدي العجوز الأبتر ، قد عشت في هذا العالم سدى ... »

كان جميع الناس في ذلك العصر ، وحتى أكثرهم تقدما وتحرر فكر ، لا يخلون من الاعتقاد بتلك الخرافة ، وهي أن الطبيعة نسيطر عليها « نيات خفية » .

وهكذا فان العم مكسيم الذي كان يتابع نمو الطفل ويلاحظ فيه كل يوم ملكات غير عادية ، اقتنع اقتناعا حاسما بأن عمى الطفل هو احدى تلك « النيات الخفية » .

« محروم يحيا لجميع الأشقياء » هذا هو الشعار الذي خلعه العم مكسيم على طفله المسكين ، منذ وقت مبكر .

Twitter: @ketab_n

٩

قضى الطفل بعد نزهته الربيعية الأولى عدة أيام يهذي ، وكان يستلقي تارة في فراشه ساكنا أخرس ، ويضطرب تارة أخرى ، ويدمدم بكلمات لا تفهم ويصيخ بسمعه الى صوت من الأصوات • وظل وجهه يعبر عن الدهشة طوال الوقت • وكانت الأم تقول :

ـ يمينا لكأنه يحاول أن يفهم شيئا ثم لا يستطيع الى ذلك سبيلا •

وكان العم مكسيم يهز رأسه وهو يفكر • لقد فهم أن الانفعال العجيب الذي عاناه الطفل ، والاغماء الذي انتابه ، يرجعان الى كثرة احساساته ، لذلك قرر أن لا يسمح بوصولها الى الصبي في فترة نقاهته الا على التدريج ، وأن لا يسمح لها بالمجيء الا احساسا بعد احساس ، وأغلقت نوافذ الغرفة التي ينام فيها الصبي • حتى اذا تماثل الصبي للشفاء أصبحت تفتح النوافذ من حين الى حين ، وأخذوا ينزهونه في أرجاء الغرفة ، ويخرجون به الى الباب ، فالفناء ، فالحديقة ، فاذا لاحظوا في وجه الأعمى علامة من علامات القلق والحيرة ، أخذت الأم تشرح الأصوات التي تفاجئه وتدهشه ، كانت تقول مثلا :

ـ هذه شبابة الراعي وراء الغابة ، وهذا صوت الهزار يغرد وسط زقزقة العصافير •••وهذا هو اللقلق يصرخ من على عجلته(١) لقد عاد منذ بضعة أيام من بلاد بعيدة ليستقر في مسكنه القديم •

فكان الطفل يدير الى أمه وجها يشرق بمعاني الشكر ، ويتناول يدها ويهز رأسه ، ويواصل الاستماع اليها ، وقد بدت على وجهه علائم التفكير والفهم •

---

(١) في اكرانيا وبولونيا تغرس للقلق أوتاد عالية يوضع في رأسها عجلات قديمة يبنى عليها اللقلق أعشاشه •

Twitter: @ketab_n

١٠

أخذ الطفل يسأل عن كل ما يلفت انتباهه ، فكانت الأم ، وكان العم مكسيم خاصة ، يسميان له الأشياء أو الكائنات التي تعرف بهذا الصوت أو ذاك ، وكانت شروح الأم أحفل بالحياة وبالصور ، فكانت تؤثر في الطفل تأثيرا أكبر ، وكان هذا التأثير مؤلما في بعض الأحيان، كانت الأم تحاول وقد فاضت عيناها بالألم والشكوى ، أن تدخل في عقل طفلها فكرة الأشكال والألوان ، فكان الطفل يركز كل انتباهه، ويقطب حاجبيه ، حتى أن غضونا يسيرة تخدد جبينه النقي : ان رأسه الطفلي يحاول عملا فوق طاقته تعقدا ، كان خياله الذي تسوده الظلمات يجهد محاولا أن يبني من هذه المعلومات غير المباشرة صورة جديدة ، ولكنه لا يظفر بذلك • فكان العم مكسيم في مثل هذه الأحوال يعبس ويكفهر ، حتى اذا امتلأت عينا الأم بالدموع ، وشحب وجه الطفل من فرط الجهد ، حشر الجندي نفسه في الحديث ، وأبعد الأم ، وأخذ يقص على الطفل حكايات لا يستعمل في سردها الا فكرة المكان وفكرة الصوت ، فيسترخي عندئذ وجه الطفل وتنطلق أساريره •

كان الطفل يسأل عن اللقلق الذي يصوت من أعلى وتده :

ـ كيف هو ؟ أهو كبير ؟ •

ويباعد عندئذ ذراعيه • لقد كان يباعدهما كلما طرح سؤالا من هذا القبيل ، فيشير العم مكسيم الى اللحظة التي يجب أن يتوقف فيها عن مباعدتهما • وفي هذه المرة باعد الطفل ذراعيه الى أقصى حد يستطيعه ، ولكن استاذه قال له :

ـ لا ، لا ، يا صغيري • ان اللقلق أكبر من ذلك كثيرا • فلو

Twitter: @ketab_n

جئنا به الى الغرفة ، ووضعناه على الأرض لكان رأسه أعلى من مسند الكرسي • هل تفهم ؟

فقال الطفل وقد بدت عليه أمائر التفكير :

ـ هو اذن كبير جدا ، وهل الهزار هكذا ؟

وما كاد يباعد يديه الصغيرتين قليلا حتى قال له مكسيم :

ـ نعم ، هو هكذا تماما • ولكن الطيور الكبيرة لا تغرد بصوت جميل كالطيور الصغيرة ، ان الهزار يحاول أن يطرب بتغريده جميع الناس • أما اللقلق فهو طائر رصين يقف في عشه على ساق واحدة ، ويظل ينظر حوله كمعلم فظ غليظ القلب يراقب عماله ، ويؤنبهم ويقرعهم بصوت عال لا يعنيه انه يزعج الجيران بصراخه الأجش •••

فضحك الطفل وهو يسمع هذه الشروح ، ونسي ، الى حين ، الجهود الشاقة التي كان يبذلها حتى يفهم قصص أمه • ولكن قصص أمه كانت تشوقه أكثر من قصص العم مكسيم ، فكان يؤثر ان يتجه اليها أكثر مما يتجه الى العم مكسيم •

Twitter: @ketab_n

ـ الفصل الثاني ـ

١

كان عقل الصبي المظلم يغتني بمعـان جديدة • كان بفضل سمعه المرهف الى أقصى حدود الرهافة ، ينفذ الى الطبيعة التي تحيط به ، شيئا بعد شيء ، ولكن ليلا عميقا لا يمكن النفاذ اليه ما يزال يحف به من فوقه ومن حوله • ان ظلمات هذا الليل تجثم على دماغ الفتى سحبا ثقيلة ، ورغم أنه ينوء بحملها منذ أول يوم خرج فيـه الى الوجود ، فان طبيعته تحاول بلا انقطاع أن تزيح هذا الحجـاب الكثيف ، مدفوعة بغريزة عليا ، ان هذه الاندفاعات اللاشعورية التي تهيب بالصبي الى الضياء المجهول لا تهجره قط ، وها هو ذا وجهه يزداد تعبيرا عن جهد مبهم مؤلم لا ينقطع •

على ان للصبي ، هو الآخر ، لحظات من الفرح المضيء ومن الحماسة الطفلية العذبة ، وكان هذا يقع له خاصة ، حين يستطيع أن يترجم الانطباعات الخارجية التي يمكنه بلوغها ، الى احساسات قوية جديدة تطلعه على حوادث جديدة في هذا العالم الذي لا يراه • ان الطبيعة الكبيرة الجبارة ليست موصدة أمامه تماما • من ذلك مثلا أنه اقتيد يوما الى صخرة فوق النهر ، فكان يصغي ، متجمعا على نفسه جادا كل الجد ، الى ما تحدثه موجات الماء الصغيرة تحته من هـدير عذب فتعلق بثوب أمه ، وراح يصيخ بسمعه الى أصوات تساقط الحصى في الماء من تحت قدميه ، فأخذ من ذلك الحين يتصور العمق في صورة خرير الماء خفيفا تحت صخرة او صورة أصوات الحصى الصغيرة تتدحرج جافلة وتهوى الى الماء بسرعة •

وكان الفضاء يدوي في أذنيه كأغنية تغيب • ولكن حين كان

Twitter: @ketab_n

يقصف رعد الربيع ويدور في السماء مدويا ، ويملأ الفضاء كله بهزيمه ، ثم يغيب مع أنين حانق وراء السحب ، كان الطفل الأعمى يصغي الى هذا الصوت المصم بخوف ديني ، فينبسط قلبه ، وتنبثق في رأسه فكرة الفضاء السماوية جليلة رائعة •

هكذا كان الصوت هو التعبير الأساسي المباشر عن العالم الخارجي ، وكانت الاحساسات الأخرى لا تزيد على أن تكمل احساسات السمع التي تدور عليها كل مفاهيمه • وفي بعض الأحيان، عند الظهيرة الحارة ، حين يسكن حول الصبي كل شيء ويتقطع ذهاب الناس وايابهم ، ويقوم في الطبيعة ذلك النوع من الصمت الذي لا نحس فيه الا صعود قوى الحياة ، متواصلا أخرس ، كان وجه الصبي يكتسي تعبيرا خاصا • فيبدو بتأثير هذا الصمت الذي يحيط به ، كأن أصواتا لا يدرك ايقاعها غيره ، تخرج من أعماق نفسه ، فيصغي اليها متجمعا على نفسه غارقا في تأمل عميق • كأن فكرة ناشئة ، ولا تزال غامضة ، تأخذ تهتز في قلبه،في مثل تلك اللحظات ، كلحن مبهم •



دخل الصبي سنته الخامسة ، انه نحيل واهن ، ولكن هذا لا يمنعه من السير في الغرفة ، بل ومن الركض في أرجاء المنزل كله • فلو رآه غريب وهو يتجول في الغرف بخطى ثابتة واثقة ، وينعطف حين يجب الانعطاف ، ويبحث عن الأشياء التي يحتاج اليها في مكانها فيجدها ، لما دار في خلد هذا الغريب أن الصبي أعمى ، ولظن أن الطفل شديد التجمع على نفسه ، لا أكثر من ذلك ولا أقل، وان عينيه تسرفان في التفكير ، وتتأملان أفقا بعيدا لا نهاية له • ولكن

Twitter: @ketab_n

الصبي كان يتنقل في فناء المنزل بصعوبة ، وكان لا بد له هنالك من عصا يقرع بها الأرض قرعا خفيفا أمامه • فاذا لم يكن معه عصا آثر أن يزحف على الأرض زحفا ، يتلمس الأشياء التي تقع على طريقه تلمسا دقيقا •



كان ذلك في ذات مساء من الصيف • كان العم مكسيم جالسا في الحديقة • وكان الأب لا يزال ، كعادته ، في مكان من الحقول يعمل • وكان كل شيء في فناء البيت ، وفيما حوله هادئا • ان القرية تنام •

وانقطعت أصوات عمال المزرعة والخدم في المطبخ أيضا • لقد مدد الطفل على سريره منذ نصف ساعة تقريبا •

ورنق النوم في عينيه • ان تذكارا غريبا يتحد في نفسه ، منذ مدة ، مع عذوبة هذه الساعة المتأخرة من المساء • طبيعي انه كان لا يرى السماء الزرقاء وقد اجتاحتها الظلمة ، ولا الذرى السوداء من الأشجار تترنح أمام الفضاء اللازوردي ذي النجوم ، ولا سقوف التبن من الأبنية المحيطة بالفناء تكفهر ، ولا الظلمات الزرقاء الممتزجة بالضياء الذهبي من القمر تلف الأرض • ولكنه ، كان منذ بضعة أيام ، يغفو على احساس غريب آسر ، لا يستطيع ان يعلله حين يستيقظ في الغداة •

ففي اللحظة التي يغفي فيها النوم شعوره ، حين يهدأ حفيف أشجار الزان ، حين ينقطع الصبي عن تمييز عواء كلاب القرية من بعيد ، وعن تمييز تغاريد العندليب وراء النهر ، وعن تمييز الجلجلة الحزينة من أجراس الخيول التي ترعى العشب في السهل ، حين

Twitter: @ketab_n

تغيم هذه الأصوات المنفردة ، وتغيب في اللانهاية ، كان الطفل يحس أنها تنصهر جميعا في لحن منسجم ، وتدخل الى غرفته من النافذة ، وترفرف حول سريره مدة طويلة ، وتغرقه في أحلام عذبة . حتى اذا جاء الصباح ، استيقظ وفي نفسه عواطف رقيقة وتأثرات جميلة ، ومضى الى أمه يسألها :

ـ قولي ، يا أماه ، ما كان هذا ... أمس ؟ قولي ، يا أماه ، ماذا كان ؟

والأم لا تعرف ما يعنيه الصبي ، فاعتقدت أن أحلاما عكرت عليه نومه ، فمددته على سريره الصغير،ورسمت عليه اشارة الصليب، وانصرفت عنه حين نام . انها لم تلاحظ شيئا خاصا يلفت النظر . ولكن الطفل جاء في الغد يقول لها ذلك الكلام نفسه ، ويقص عليها مرة أخرى ما أهاجه في الليل هيجانا لذيذا .

ـ آه ، يا أماه ، ما كان أجمل ذلك ، ما كان أجمله ... قولي ، ماذا كان هذا ؟

وقررت الأم في ذات مساء أن تمكث الى جانب سرير ابنها مدة أطول ، لتوضح هذا اللغز العجيب . فجلست على كرسي بالقرب من السرير الصغير ، وأخذت تزرد نسيجها ، ذاهلة عنه ، مصغية الى أنفاس بطرسها الصغير المتساوية . وفيما كان يبدو نائما نوما هادئا ، اذا بصوته يترجع في الظلام على حين غرة ، قائلا :

ـ أماه ... أنت هنا يا أماه ؟

ـ نعم ، نعم ، يا حبيبي .

ـ اذهبي ، أرجوك أن تذهبي ، انه يخاف منك ، لم يأت بعد . كدت أنام ، ولم يأت بعد .

دهشت الأم ، وانتابها شعور غريب ، وهي تستمع الى هذا الهمس الشاكي الغافي . كان الطفل يحدثها عن أحلامه بلهجة واثقة

Twitter: @ketab_n

كأن الأحلام أمور واقعة • ومع ذلك نهضت عن كرسيها ، وانحنت على الطفل تقبله ، وخرجت تسير على رؤوس أصابع قدميها ، وهي عازمة على أن ترابط عند النافذة المطلة على الحديقة • غير أن السر توضح قبل ان تصل الى النافذة • اذ سمعت على حين فجأة نغمات ناي عذبة منسجمة ، تأتي من الزريبة ، وتمازج دمدمات ليل الجنوب ، ففهمت فورا ان هذه النغمات البسيطة من لحن ساذج هي التي ، في هذه الساعة من الليل،تضفي على ذكريات الطفل الليلية ذلك الطابع الحلو الرغيد •

فتوقفت ، ولبثت لحظة تصغي الى هذه الألحان المؤثرة من الأغنية الاكرانية ، ثم مضت هادئة كل الهدوء ، فوجدت العم مكسيم ينتظرها في ممر مظلم بالحديقة • قالت لنفسها : « ما أجمل عزف يوكيم هذا ! هل يتصور المرء ان عاطفة كهذه العاطفة يمكن ان تضطرب بها نفس فلاح (موجيك) يبلغ هذا المبلغ من الخشونة في الظاهر ؟ »

٤

كان يوكيم يجيد العزف حقا•حتى انه كان يستطيع ان يتلاعب بأوتار الكمان ذات النزوات ، ويقال انه ما من أحد كان يستطيع في الماضي ان يبزه في عزف « الرقصة القوزاقية » او الرقصة الكراكوفية الجنية ، في الخان ، يوم الاحد • كان حين يجلس في ركن على منصب ، مسندا ذقنه بقوة على الكمان،رادا قلبقه الطويل باعتزاز الى وراء ، ويأخذ يسحب قوسه المفتول على الأوتار المشدودة ، حينذاك ما كان يستطيع أحد في القاعة ان يستقر في مكانه ، وحتى العجوز اليهودي الأعور الذي يرافق يوكيم بالعزف على الكمان الكبير ،

Twitter: @ketab_n

كان يستخفه الطرب وتستبد به الحماسة حتى لتكاد آلته الثقيلة الخرقاء تتحطم من فرط ما يبذل من جهود لكي يتابع بنغماتها الثقيلة أصوات كمان يوكيم التي تنطلق كأنها الغناء خفيفة متواثبة ، وكان العجوز يانكل نفسه الذي يتناهض كتفاه عند كل حركة ، يهز رأسه الأصلع المغطى بطاقية،ويتقلقل على ايقاع اللحن الخفيف الرشيق ويترجرج.

فاذا كان هذا شأن يانكل ، فما بالك بأولئك الناس الطيبين الذين جعلت أرجلهم منذ الأزل تتثنى وتتهزز من تلقاء ذاتها متى سمعوا صوت لحن من ألحان الرقص ؟...

ولكن يوكيم منذ وقع في غرام ماريا ، وهي فتاة تعمل في أرض أحد الملاكين المجاورين ، أصبح يكره الكمان المرحة اي كره ، وتوجب علينا الحقيقة أن نقول أن هذه الآلة الموسيقية لم تساعده على غزو قلب الفتاة الفظة الغليظة التي آثرت خادما أمرد على الموسيقي الاكراني ذي الشارب ، ومنذ ذلك الحين أصبح لا يسمع يوكيم عازفا على الكمان ، لا في الخان ، ولا في سهرات القرية . لقد علق الكمان على مسمار في زريبته ، حتى انه لم يلاحظ أن أوتار هذه الآلة التي كان يحبها في الماضي حبا عظيما أخذت تتقطع واحدا بعد آخر بتأثير الرطوبة ، وكانت هذه الأوتار حين تتقطع تصدر أصواتا شاكية فائضة بحزن قاتل ، تسمعها الخيول ، فتصهل ، صهيل الرحمة والشفقة ، وتدير رؤوسها الى سيدها الذي قسا قلبه كل هذه القسوة، وقد تملكتها الدهشة . واشترى يوكيم شبابة خشبية من رجل جبلي من رجال جبال الكاربات ، ليحلها محل الكمان . لعله كان يرى أن ما تصدره الشبابة من انغام ناعمة شجية ، أقرب الى حظه الحزين، وأقدر على التعبير عن كربة قلبه الجريح .

ولكن الشبابة الجبلية خيبت ظنه : جربها على ألف طريقة وطريقة ، وقلمها ، وأغطسها في الماء ، وجففها في الشمس ، ثم

Twitter: @ketab_n

عرضها للهواء ، بربطها بالسقف بسلك دقيق ••• عبث كل ما فعل، ان شبابة الجبال لا تناسب القلب الاكراني ، فهي تصفر حين يجب أن تغني ، وتصدر أصواتا حادة حين يريد لها يوكيم أن ترجع الحانا فاترة واهنة • وبكلمة موجزة: كانت الشبابة لاتريدأبدا أن تعبر عن مزاج صاحبها • واشترى يوكيم عشر شبابات أخرى • وحنق في آخر الأمر على جميع هؤلاء الجبليين المتشردين ، معتقدا أنهم لا يجيدون صنع شبابة جيدة ، وقرر أن يصنع لنفسه شبابة على ما يناسب ذوقه •

وظل بضعة أيام يضرب في الحقول والغدران ، عابس الوجه ، ويقترب من كل غابة من غابات الصفصاف الصغيرة ، ويأخذ يتفحص جميع الأغصان ، ويقطع بعضها ، ولكنه لم يهتد الى ضالته التي يبحث عنها ، فظل يمعن في المسير الى أمكنة أبعد ، يتابع بحثه ، مكفهر الوجه ، مقطب الجبين ، وتوقف أخيرا في مكان تجري مياه النهر عنده متثاقلة وانية ، ان تيار النهر في هذا الخليج الصغير لا يكاد يهز الرؤوس البيضاء من شجيرات النيوفر ، والريح لا تكاد تصل الى أغصانها من كثافة أشجار الصفصاف الوارقة ، انها هادئة متجمعة على نفسها ، منحنية في رفق على مرآة الأمواه الساكنة العميقة •

أبعد يوكيم الأغصان ، وتوقف بضع دقائق على ضفة الماء ، فأدرك فجأة انه هنا سيجد ضالته المنشودة فانبسطت غضون جبينه أخرج من جيبه موسى معلقة بشراك ، وبعد أن لف أشجار الصفصاف ذات الحفيف ، بنظرة منتبهة ، اتجه بخطى واثقة نحو شجرة صغيرة منتصبة مرنة ، تترنح فوق الضفة الوعرة التي أكلتها المياه ، فضربها بطرف سبابته ، وأخذ يمتع بصره باهتزاز ساقها المرنة ويصغي الى حفيف أوراقها ، وهز رأسه •••

ــ هذا ما أبحث عنه •

Twitter: @ketab_n

قال يوكيم ذلك مفتونا ، وقذف الى الماء بكل القضبان التي قطعها من قبل •

ونجحت الشبابة على ما يحب • فحين جف القضيب ، حرق جوفه بسلك حماه حتى الاحمرار ، ثم ثقبه ستة ثقوب مدورة ، وأضاف ثقبا سابعا من جانب ، وسد أحد الطرفين بسدادة من خشب، تاركا فتحة صغيرة ، ثم علق الآلة بسلك ، وتركها تتأرجح في الهواء والشمس مدة أسبوع كامل • ثم صقلها ونظفها بقطعة من الزجاج ، ونشفها بخرقة من الصوف ، في كثير من العناية • كان أعلى الشبابة مدورا تماما ، وكانت في وسطها ذات وجوه مسطحة متساوية ، زينها يوكيم بنقوش معقدة بواسطة شفرات من الحديد مقوسة حماها حتى الاحمرار • وحين أخرج منها بعض الأصوات ، هز رأسه طربا وفرحا ، ودمدم يعبر عن سروره ورضاه ، ثم أسرع فأخفى شبابته في ركن على مقربة من سريره • كان لا يريد أن يقوم بتجربته الموسيقية الأولى في جو النهار الصاخب المضطرب • حتى اذا أرخى الليل سدوله ، خرجت من الزريبة ألحان عذبة شجية ، تفيض برقة ساحرة ، وأحلام مسكرة • ورضي يوكيم عن شبابته التي أصبح يراها جزءا منه • لكأن الأنغام كانت تخرج من قلبه ، قلبه المتوقد الشجي ، فقد كانت الناي الرائعة تعبر عن أدق خلجات عاطفته ، وعن أيسر ارتعاشات حزنه • كانت الأنغام المتموجة تطير نغما اثر نغم ، في الليل الذي يصغي اليها بانتباه •

٥

ان يوكيم واقع الآن في غرام شبابته ، وهما يقضيان معا شهر العسل • كان ، في اثناء النهار ، يقوم أحسن قيام بما يقع على عاتق

Twitter: @ketab_n

السائس من واجبات ، يورد الخيل ، ويكدنها ، وينزه ربة البيت أو العم مكسيم على العربة • وكان اذا مر بالقرية المجاورة التي نقطنهـا ماريا القاسية ، يشعر بكرب شديد يحز في قلبه ، ولكنه كان متى أتى المساء ينسى كل شيء ، فحتى صورة الفتاة ذات الحاجبين الأسودين الفاتنين كان يلفها نوع من الضباب فتفقد واقعيتها المحرقة ، وتتراءى له في جو غامض مبهم ، فلا يكاد يرى منها الا ما يكفي لبث روح الأحلام والحزن في نبرات نايه الساحرة •

وفي ذلك المساء ، كان يوكيم متمددا في زريبته ، وقد تملكته نشوة الموسيقى ، فأخذ يرسل ألحانه طليقة شاكية • وكان الموسيقي قد نسي حبيبته القاسية ، بل ذهل حتى عن وجوده ، حين انتفض فجأة ، ونهض عن سريره • ذلك أنه ما كاد يصل الى أشجى جزء من عزفه ، حتى شعر بيد صغيرة تطوف بأصابعها الصغيرة على وجهه ، وتنزلق على يديه ، وتتلمس الناي بسرعة ، وسمع في الوقت نفسه آهة قصيرة ، سريعة ، مهتاجة ، تنطلق على مقربة منه •

ظن يوكيم أن الأمر أمر سحر ، فرسم اشارة الصليب ، وهو يهتف : « أأنت رسول من عند الشيطان أم من عند الله • » لأنه أراد أن يتأكد من أنه ليس أمام الروح الخبيث •

غير أن شعاعا من أشعة القمر دخل من باب الزريبة المفتوح ، فعرف يوكيم أنه أخطأ الظن ، اذ رأى الأعمى الصغير واقفا الى جانب سريره يمد اليه يديه الصغيرتين •

وبعد ســـاعة ، أرادت الأم أن تلقي نظرة على صغيرها النائم بطرس ، فلم تجده في سريره ، فجزعت في اللحظة الاولى أشـــد الجزع ، ولكن سرعان ما هدتها غريزة الأمومة الى المكان الـذي تبحث فيه عن ابنها • وما كان أشد اضطراب يوكيم حين توقف لحظة عن العزف يسترد أنفاسه ، فاذا هو يرى ربة القصر نفسهـا

Twitter: @ketab_n

واقفة على عتبة الزريبة • كانت واقفة هنالك منذ بضع دقائق ، تصغي الى موسيقاه ، وتنظر الى ابنها ، وقد تلفع بعباءة يوكيم القصيرة ، وجلس على السرير ، وراح يصغي بشراهة الى أغنية يوكيم ، التي انقطعت •

ومنذ ذلك المساء ، أخذ الطفل يجيء الى الاسطبل كل مساء • ولم يخطر بباله ابدا أن يرجو يوكيم أن يعزف له اثناء النهار ، لأنه كان يشعر أن جلبة النهار وما في النهار من مجيء وذهاب ، تجعل اخراج هذه الألحان العذبة أمرا مستحيلا • ولكنه كان متى هبط المساء يشعر بنفاد صبره ، وتهيج أعصابه • وما كان يرى في وجبة العشاء الا اشارة الى أن اللحظة السعيدة تقترب ، وكانت الأم بفطرتها لاتحب كثيرا هذه الجلسات الموسيقية ، ولكنها كانت لاتستطيع أن تمنع ابنها الحبيب من زيارة الموسيقي القروي،ولامن أن يقضي في الاسطبل ساعتين قبل النوم • وأمست هاتان الساعتان أسعد ساعات اليوم عند الصبي ، وأحبها الى قلبه ، وأدركت الأم ، والغيرة تنهش صدرها ، أن احساسات الليل تظل تشغل الصبي طوال النهار في الغد • فقد لاحظت أن الصبي الصغير لايستجيب لدغدغاتها بمثل ما كان يستجيب لها في السابق من حرارة ، وأنه أصبح حين يركع على ركبتيه ويعانقها ، يفكر ويتذكر الأغنية التي عزفها له يوكيم بالأمس•

فتذكرت عندئذ أنها حين كانت تلميذة في المدرسة الداخلية للبنات التي تديرها مدام رادستكا بمدينة كييف ، قد تعلمت الموسيقى التي تعد بين الفنون اللذيذة • والحق أن ذكرياتها لم تكن لذيذة جدا ، لأنها مقترنة بصورة الآنسة كلابس ، المعلمة الألمانية ، العانس العبوس ، الفظة ، الخبيثة بوجه خاص • ان هذه الآنسة الشرسة الى أبعد حدود الشراسة ، التي كانت قادرة على خلع أصابع تلميذاتها من أجل أن تكسبها المرونة اللازمة ، قد نجحت كل النجاح في أن

Twitter: @ketab_n

تقتل لدى تلميذاتها كل عاطفة موسيقية ، ذلك أن هذه العاطفـــة الخجولة كانت لاتطيق مجرد وجود الآنسة كلابس التي كانت تفهم الطرائق التربوية فهما أميل الى الغرابة • لذلك فان آنا ميخائيلونا ، بعد أن أنهت دراستها وتزوجت ، لم يخطر ببالهاأن تستأنف تمرينانها الموسيقية ، ولكنها الآن ، كلما سمعت عازف الناي الأكراني ، على رغم شعورها بالغيرة ، أصبحت تفتح قلبها للموسيقى الحقة ، وزالت صورة الآنسة الألمانية من مخيلتها • ولم تلبث مدام بوبلسكا حتى رجت زوجها أن يستقدم لها بيانو من المدينة•فقال لها زوجها مثال الأزواج :

ـ لك ما تشائين ياعزيزتي • ولكنك ، اذا لم يخطيء ظني ، ماكنت تحبين الموسيقى كثيرا •

وكتب الى المدينة في ذلك اليوم نفسه يطلب بيانو ، ولكن كان لابد من انقضاء أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على الأقل ، لشراء البيانو وارساله الى الريف •

وفي اثناء ذلك كان نداء الألحان يسمع كل يوم من الاسطبل ، فكان يسارع الطفل الأعمى الى هناك ، وصار لايستأذن أمه في ذلك •

كان عبق الأعشاب اليابسة يمتزج برائحة الاسطبل الخاصة ، وبرائحة سيور الجلد القـــوية • وكانت الخيول تشد هشيمها من المذود ، فيخشخش ، وتأخذ تمضغ علفها على مهل • وكان حفيف أشجار الزان يصل الى الاسطبل واضحا ، متى توقف الموسيقى عن العزف ليسترد أنفاسه ••• فكان الصغير بطرس يصغي الى هـــذا كله كأنه مسحور •

وكان لايقاطع عازف الناي ابدا • ولكن متى توقف العازف من تلقاء نفسه ، وانقضى على توقفه دقيقتان أو ثلاث دقائق ، حل محل الافتنان الأخرس نهم خاص • فاذا بالصبي يتطاول الى الشـــبابة ،

Twitter: @ketab_n

وتناولها بيديه المرتعشتين ، ويحملها الى شفتيه . وكان الانفعال في المرة الأولى يقطع أنفاسه ، فخرجت الأصوات الأولى صماء مترددة . ولكنه ألف هذه الآلة الموسيقية البدائية شيئا بعد شيء ، وكان يوكيم يحكم له وضع أصابعه على الثقوب ، وما هي الا برهة حتى أصبح الصبي ، رغم أن يده الصغيرة لاتكاد تستطيع سد جميع هذهالفتحات، قد تعود على اصدار أصوات السلم الموسيقي . وكان لكل نغمة من نغمات السلم عنده وجه خاص ، هيئة خاصة . أصبح يعرف في أي ثقب من الثقوب يثوي كل صوت من الأصوات ، وكيف يجب احداث هذا الصوت ... ومن حين الى حين أخذت أصابع الصبي ، بتقفي الألحان البسيطة جدا التي ينغمها يوكيم ، تتحرك هي الأخرى على ايقاع اللحن . وأصبح الصبي يتصور تصورا واضحا جدا النغمات المتعاقبة مرتبة على أمكنتها صعودا أو هبوطا .



بعد انقضاء ثلاثة أسابيع تماما ، وصل البيانو من المدينة . كان بطرس في فناء المنزل ، يصغي بانتباه الى حركة العمال وهم ينقلون « الموسيقى » الى البيت .

لاشك أن الآلة كانت ثقيلة جـــدا ، لأن العـربة التي كانت محمولة عليها قضقضت حين رفعهـــا ، ولأن الشيالين كانوا يئنون ويتنفسون في كثير من العناء . وحين كانوا يتقـــدمون بخطى ثقيلة محسوبة ، كان شيء غريب يدندن فوق رءوسهم ، ويهمهم ، ويهتز عند كل خطوة . وحين وضعوا الآلة على الأرض في القاعة سمـــع دوي أصم ، كأنه تهديد غاضب أشد الغضب .

Twitter: @ketab_n

كل هذا أحدث في الطفل تأثيرا يشبه أن يكون ذعرا ، وجعله ينفر من الضيف الجديد الخبيث منذ الآن ، رغم أنه جامد لاحياة فيه • فخرج الى الحديقة ، ولم يسمع كيف ركزت الآلة على أرجلها، ولا كيف كان « المدوزن » الذي قدم من المدينة خصيصا يضرب على أصابع البيانو ويشد أوتاره • حتى اذا انتهى كل شيء نادت الأم ابنها بطرس •

وأخذت الأم ، وقد سلحت بهذا البيانو الذي صنعه أحد مشاهير الاختصاصيين من فيينا ، أخذت تحتفل سلفا بانتصارها على الشبابة الساذجة القروية • كانت واثقة من أن ابنها بطرس سينسى الاسطبل ، وسينسى عازف الناي ، ومن أنها ستكون بعد الآن الينبوع الوحيد لجميع أفراح طفلها • ونظرت بعينين ضاحكتين الى الطفل الذي كان يدخل الغرفة خجولا يصحبه العم مكسيم ، ويوكيم الذي استأذن في الاستماع الى الموسيقى الجديدة ، وكان قد وقف على الباب مرتبكا ، خافض العينين ، وقد تهدلت خصلة من شعره على جبينه • فلما جلس العم مكسيم ويوكيم على الأريكة ، ضربت آنا ميخائيلوفنا على أصابع البيانو فجأة •

كانت تعزف مقطوعة أتقنت عزفها تحت اشراف الآنسة كلابس في مدرسة مدام رادتسكا • انها معزوفة صاخبة معقدة ، تقتضي كثيرا من المرونة في الأصابع • وقد احرزت آنا ميخائيلوفنا ، اذ عزفت هذه المقطوعة في المسابقة التي أجريت أيامذاك ، سيلا من الأماديح كان ينهال على استاذتها خاصة • وقد افترض بعض الناس ، رغم أن احدا لا يعرف عن ذلك شيئا على وجه اليقين ، أن السيد بوبلسكي الصموت انما أسرته الآنسة ياتسنكو في تلك الحفلة بالذات ، أثناء الدقائق الخمس عشرة التي سحرت الفتاة خلالها الجمهور ، وهي تعزف تلك المقطوعة الصعبة • وها هي المرأة الشابة تعزف الآن هذه المقطوعة

Twitter: @ketab_n

نفسها مرة أخرى مؤملة في أعماقها أن تحرز نصرا جديدا : انهـــا تحاول أن تسترد قلب ابنها الصغير الذي سحرته شبابة أكرانيـــة عامية •

ولكنها أخطأت الظن في هذه المرة : ان الآلة الفينوية لم تستطع أن تنتصر على قضيب من صفصاف أكرانيا • صحيح أن البيانو الأجنبي يملك كثيرا من وسائل الاغراء القوية : خشب ثمين ، أوتار من أجود الأوتار ، صناعة متقنة بيد ماهرة من فيينا ، وغنى في الأصوات ما بعده غنى • ولكن للشبابة المتواضعة انصارها ايضا ، لأنها في وطنها ، في بلادها ، في اطارها المألوف ، الطبيعة الأوكرانية •

قبل أن يقطعها يوكيم بسكينه ، وأن يحرق جوفها بقطعة من الحديد حامية حتى الاحمرار ، كانت تهتز هنا ، في مكان قريب جدا ، فوق النهر الصغير الذي يعرفه الطفل كل المعرفة ، دغدغتها الشمس الأكرانية التي دفأتها هي نفسها بعد ذلك ، وطالما عطفتها ريح أكرانيا ، الى أن وقعت عليها عين عازف الناي الحادة ، ورأتها تختلج فوق ضفة النهر التي أكلتها المياه • انه ليصعب على الضيف الأجنبي أن يغالب الشبابة الصغيرة الساذجة ، لأن الشبابة قد ظهرت للصبي في ساعـــة حلوة من الاغفاء الخفيف ، وسط سحر المساء الفـــاتن ، وحفيف أشجار الزان التي تنام ، وأصوات الطبيعة الأكرانية المألوفة •

ثم أن مدام بوبلسكا لايمكن أن تقاس بيوكيم • صحيح أن أصابعها المرهفة أكثر حياة ونشـــاطا ومرونة ، وصحيح أن اللحن الذي تعزفه أكثر تعقدا وغنى ، وصحيح أن الآنسة كلابس قد فعلت كل ما تستطيع من أجل أن تعلم تلميذتها السيطرة على آلة صعبـــة كهذه • ولكن يوكيم يملك احساسا بالموسيقى فطريا • وكان يحب ، وكان يتألم ، وكان يفضي بحبه وبألمه الى العناصر التي يعرفها منـــذ نعومة أظفاره : الطبيعة المألوفة ، همهمة الغـــابة ، حفيف أعشاب

Twitter: @ketab_n

السهوب ، الأغنية القديمة الحالمة القريبة التي هدهدته على سريره ، في مسقط رأسه ، ذلك كله هو الذي علمه تلك الألحان البسيطة .

نعم انه ليصعب على الآلةالفينوية أن تنتصر على الناي الأكرانية. فبعد دقيقة واحدة ، ضرب العم مكسيم الأرض بعكازته ، فالتفتت آنا ميخائيلوفنا ، فرأت في وجه بطرس ذلك التعبير نفسه الذي رأته فيه يوم النزهة الربيعية الأولى، يوم سقط الطفل فوق العشب مغشياعليه.

ونظر يوكيم الى الصبي الصغير نظرة عطف وحنان ، وألقى على « الموسيقى الألمانية » نظرة احتقار وازدراء ، ومضى فكان حذاءاه الثقيلان ، حذاءا الفلاح ، يقرعان الأرض قرعا قويا .

٨

ان هذا الاخفاق قد كلف الأم المسكينة كثيرا من الدموع وكثيرا من الخزي . هي « السيدة الراقية » ، بوبلسكا ، التي حازت على تصفيق « جمهور مصطفى » ، هي ، تخفق اخفاقا قاسيا كهذا ؟ ومن الظافر الذي انتصر عليها ؟ يوكيم ، سائس بسيط ، بقصبة حقيرة ! انها كلما تذكرت نظرة الملاطفة المستخفة التي ألقاها عليها يوكيم في حفلتها الموسيقية المخفقة ، يصعد الدم الى وجهها من الخزي ، حتى أصبحت تمحض هذا « الموجيك الوغد » أصدق الكره .

ومع ذلك كانت كلما هرب ابنها الى الاسطبل ، تفتح نافذة غرفتها ، وتتوكأ على مسندها ، وتصغي الى موسيقى الناي ، في نهم وشراهة . كانت تفعل ذلك أول الأمر وهي تحس بنوع من الاحتقار الحانق ، محاولة أن تدرك الجوانب المضحكة في هذه « الزقزقة الغبية » بوجه خاص ، الا أن هذه الزقزقة أصبحت بعد ذلك تستولي على انتباهها شيئا بعد شيء ـ دون أن تدري لماذا ـ وأخذت تتابع

Twitter: @ketab_n

الألحان العذبة الشجية التي تخرج من النا ي، تتابعها مفتونة مسحورة.
وحين لاحظت على نفسها ذلك ، تساءلت عن السر الخفي الذي يجعل
هذه الألحان جذابة فاتنة . ثم استطاعت الليـالي الزرقاء ، وظلال
الشفق الغائمة ، والانسجام الرائع بين الأغنية والطبيعة التي تحيط
بها ، ان تساعدها على فهم الأمر . قالت لنفسها وقد غلبت وأسرت
هي أيضا : « نعم ان في هذا لشيئا خاصا ، صادقا كل الصدق ... ان
فيه لشعرا لا يمكن أن يتعلمه المرء في دفتر الموسيقى . » .

صدقت . ان سر هذا الشعر يثوي في هذه العلاقة اللطيفـة
المرهفة بين الماضي الذي مات منذ زمان طويل وبين الطبيعة التي لا تزال
تخاطب قلب الانسان ، الطبيعة الخالدة ، التي شهدت ذلك الماضي .
وان هذا الموجيك الخشن ، ذا اليدين الجاسيتين ، والنعلين الغليظين ،
يحمل في نفسه هذا الانسجام ، هذا الاحساس القوي بالطبيعة .

وأذعنت السيدة المختالة للسائس البسيط ، واعترفت لنفسهـا
بذلك . نسيت ملابسه الغليظة ، ورائحـة القطران التي تلازمه ،
وأصبحت ترى من خلال ألحان الناي القروية ، وجه يوكيم الطيب،
والتعبير الرقيق في عينيه الشهباوين ، والابتسامة الخجولة الفكهة ،
في آن واحد ، التي تختبيء وراء شاربيه الطويلين . واذا كان الدم
يصعد الى وجهها وصدغيها من حين الى حين ، فلشعورها بأنها في هذا
النضال الذي خاضته من أجل الحصول على انتباه طفلها ، تقف هي
والفلاح في حلبة واحدة ، وأنها تنازله منازلة الند للند وأنـه هو
الذي انتصر آخر الأمر .

كانت اشجار الحديقة توشوش فوق رأسها ، وكان الليل يشعل
نيرانه في السماء الواسعة اللازوردية الضاربة الى سواد ، ويغرق
الأرض بظلماته الزرقـاء ، وكان الشجى الحـار في أغاني يوكيم

Twitter: @ketab_n

يتسرب الى نفس المرأة الشابة وينفذ فيها • فكانت تسلس قيادهـــا شيئا فشيئا ، يغلبها السر الساذج في هـــذا الشعر البسيط ، الرائع ، الذي لاصنعة فيه •

٩

نعم ، لقد كان الفلاح يوكيم يملك ذلك الاحســـاس الحي الصادق ! وهي ؟ هل يمكن أن تكون محرومة منه ؟ لا ، والا فكيف تفسر اضطراب قلبها ، وهذا القلق الذي يفيض به كيانها كله ، وهذه الدموع التي تترقرق في عينيها ، على رغمها ؟

أليس هذا عاطفة ، عاطفة حب عنيف لطفلها الأعمى المسكين الذي يهجرها الى يوكيم ولا تستطيع أن تهيء له ما يهيئه له هو من متع قوية حية ؟

وكانت تتذكر دائما ذلك التعبير الأليم الذي أحدثه عزفهـا في وجه طفلها ، فكانت تجري على خديها دموع سخيـــة مرة ، وكانت في بعض الأحيان لاتكاد تستطيع أن تخنق شهقاتها التي يغص بهـــا حلقها •

يالها من أم يائسة ! لقد غدت آفة ابنها آفتها ، آفة لا تبرأ ••• تتجلى في حنان مفرط ، مرضي ••• وفي هذه العاطفة التي تتملكها وتشد قلبها الى أيسر ألم يطوف في قلب ابنها ، بألوف من الخيـــوط لا ترى•••لهذا فان الامر الذي كان يمكن أن يولد في قلب أم غيرها شيئا من الحسرة ـ أعني تنافسها الغريب مع الناي القروية ـ أصبح لها ينبوع آلام عنيفة لاتتناسب وبساطة هذا الأمر •

Twitter: @ketab_n

وانقضت الايام لا تخفف لوعتها ، ولكنها لا تخلو من فائدة :
لقد أخذ يدب في الام تيار هذه الاحساسات المرتعشة من الشعر الموسيقي الذي يفتنها في عزف يوكيم ، فانتعشت امالها ••• ودفعتها قوة مفاجئة ، وثقة جديدة ، الى الاقتراب من البيانو غير مرة ، ففتحته تريد ان تخنق بأصواته المدوية شبابة السائس الخجولة ، الا ان شيئا من التردد ، شيئا من الخفر كان يصدها كل مرة عن محاولاتها • كانت تتذكر وجه فتاها المضطرب ، ونظرة الفلاح الملاطفة ، فيحترق خداها من الخزي في الظلام ، فتكتفي بأن تطوف بيدها على أصابع البيانو في شهوة تفيض بالخوف •

غير ان شعورها العميق بقوتها كان يتزايد كل يوم ، فكانت اذا جاء المساء تنتهز اللحظات التي يذهب فيها ابنها الى زاوية بعيدة من الحديقة ، او الى ركن من الاركان يتنزه فيه ، فتجلس الى البيانو • لم تعجبها المحاولات الاولى كثيرا • كانت يداها تعجزان عن اخراج ما تحسه في أعماقها ، وبدت لها أصوات آلتها في أول الامر غريبة عن حالتها النفسية ، غير ان هذه الحالة النفسية أصبحت شيئا بعد شيء تعبر عن ذاتها في امتلاء وسهولة ما ينفكان في ازدياد • ان دروس الموجيك قد اينعت ثمراتها • ثم ان الحب الذي تفيض به نفس الام ، وفهمها الدقيق لما يأسر قلب طفلها ، قد أهلاها للاستفادة من تلك الدروس بسرعة • لقد هجرت المعزوفات الصاخبة القوية ، وأصبحت الاغنية العذبة الشجية « الدومكا » الاكرانية ، هي التي تبكي في البيت حين يجتاحه الشفق ، فيرق قلب المرأة الشابة •

وشعرت أخيرا أنها بلغت من القوة ما يكفيها لخوض غمار معركة صريحة ، وعندئذ قام نوع من النزال بين القصر واسطبل يوكيم ، فمن الكوخ المظلم ذي السقف المصنوع من القش ، كانت تتصاعد زقزقات الحان الناي • وامامه ، من النافذ الواسعة المفتوحة

Twitter: @ketab_n

على مصاريعها في القصر المنيف ، التي تعكس ضوء القمر من خلال أوراق الزان ، كانت تخرج الحان البيانو الغناء .

وفي أول الأمر لم يشأ الطفل ولا يوكيم ان يصغيا الى« موسيقى الاساتذة » التي نفرا منها ، حتى ان الاعمى الصغير كان يقطب حاجبيه ، ويستحث يوكيم حين يتوقف عن العزف ، قائلا له :

ـ هيا اعزف .

الا ان الوقفات أصبحت ، بعد يومين ، تزداد ثم تزداد . فكان يوكيم يضع شبابته جانبا ، ويصغي باهتمام ما ينفك يشتد . وأصبح الطفل يصغي ، هو أيضا ، ناسيا أن يحض صديقه على العزف . وقال الموجيك ذات مساء ، وقد بدت على وجهه علامات التفكير :

ـ ما أجمل هذا ... كم هي ... !

ثم أمسك بيد الطفل ، وسار به خلال الحديقة في اتجاه النافذة المفتوحة ، فعل ذلك وقد بدت على وجهه أمائر الذهول والتأمل التي تظهر في وجه كل من يصغي بانتباه .

كان يظن ان ربة البيت تعزف لنفسها ، دون ان تلقي اليهما بالا ، ولكن آنا ميخائيلوفنا كانت لاحظت أثناء الوقفات ان غريمتها ، الناي ، قد صمتت ، فأيقنت من نصرها ، وخفق قلبها فرحا .

وفي الوقت نفسه زال حنقها على يوكيم تماما . لقد كانت سعيدة ، وكانت تدرك ان هذه السعادة انما يرجع الفضل فيها اليه ، فهو الذي علمها كيف تسترد طفلها ، واذا استطاعت بعد ذلك ان تمد طفلها الحبيب بكنوز من الاحساسات الجديدة لا تنضب ، فيجب على الام والابن كليهما ان يعترفا بالفضل لعازف الناي القروي، معلمهما كليهما .

Twitter: @ketab_n

١٠

" ذللت الصعوبات الاولى • ففي الغداة دخل الطفل خجولا الى الصالون بعد أن أصبح لا يدخله منذ وصول الضيف الغريب الذي وفد من المدينة ، وبدا للطفل مخلوقا صعب المراس ، كثير الصخب بالأمس ، فتنت أغاني هذا الضيف سمع الصبي ، وغيرت رأيه فيه ، وها هو ذا الان يقترب من الركن الذي وضع فيه البيانو ، يقترب وفيه بقية من خجل ، ويتوقف على مسافة منه ، ويصيخ بسمعه اليه • لم يكن في الصالون أحد • كانت الام في الغرفة المجاورة ، جالسة على اريكتها ، تقرأ في كتابها ، فلما رأته ، حبست أنفاسها ، وأخذت تلاحظه ، وتعجب بكل حركة من حركاته ، وتعجب بتبدلات وجهه المعبر •

مد الطفل ذراعيه ، ولمس سطح الآلة المبرنق ، ثم ما لبث ان تراجع خائفا • وبعد ان كرر هذه التجربة مرتين متواليتين ، اقترب من البيانو أكثر من ذلك ، وأخذ يتفحصه ، وانحنى الى الارض يجس أرجله ، ودار حوله ، ثم وقعت يداه أخيرا على الأصابع المصقولة •

وارتعش في الهواء صوت عذب هو صوت أحد الأوتار رن رنينا واهنا ، فأصغى الطفل طويلا الى الاهتزازات التي أصبحت الام لاتسمعها ، ثم استجمع نفسه ، ولمس اصبعا آخر ، وبعد أن طاف بيده على جميع الأصابع ، أخرج نغمة من السلم العالي • كان يدع لكل نغمة من النغمات أن تهتز الى أن تسكت ، فكانت الأصوات تهتز واحدا بعد آخر ، ثم تفنى في الهواء • وكان وجه الاعمى اذ يعبر عن توتر فكري شديد ، يعبر في الوقت نفسه عن متعة ولذة • كان

Twitter: @ketab_n

يعجب بكل صوت على انفراد • ان هذا الانتباه الشديد الى الاصوات الاولية ، التي يتألف منها اللحن ، ليكشف وحده عن مواهب فنان •

ولكن الاعمى الصغير كان ، عدا ذلك ، يعزو الى كل صوت من الاصوات صفات خاصة ، فاذا انبثقت بين أصابعه نغمة فرحة واضحة من السلم العالي ، رفع وجهه المشرق ، كأنه يتابع طيرانها الخفيف في الهواء ، اما اذا طلعت اهتزازة ثقيلة لا تكاد تدرك،صماء، من السلم المنخفض ، اتجه باذنيه الى تحت ، كأن النغمة الثقيلة لا بد أن تنتشر على سطح الأرض ، وان تتفرق وتغيب في الزوايا المظلمة•

١١

كان العم مكسيم يبدو متسامحا في أمر هذه التجارب الموسيقية، والعجيب ان هذه الميول التي ظهرت في الطفل في سن مبكرة ، كانت تثير في نفس الرجل الأبتر عواطف متناقضة • فهو ، من جهة ، يرى ان هذا الميل الى الموسيقى يدل على موهبة موسيقية لا ريب فيها ، ويعين بذلك ما يمكن ان يكون للصبي الصغير من مستقبل • ومن جهة أخرى ، كان في قلب الجندي القديم شيء غامض من خيبة الأمل •

كان العم مكسيم يقول لنفسه :

« لاشك أن للموسيقى قوةهائلة تمكن من غزوقلوب الجماهير • وقد يجتذب هذا الاعمى في المستقبل مئات ومئات من السيدات ومن الرجال المتأنقين ••• يهرعون للاستماع اليه ••• فيعزف لهم الفالس والرومانس ••• ويأخذون يجففون دموعهم بمناديلهم الحريرية (يجب ان نذكر ان معلومات العم مكسيم الموسيقية لا تتجاوز حدود « الفالس » و « الرومانس ») • الا ان هذا ليس هو ما كنت أحبه

Twitter: @ketab_n

للفتى ! ••• ولكن ما الحيلة ؟ ان الصغير المسكين أعمى ، فليعمل اذن ما يستطيع عمله • ترى أليس من الافضل له أن يغني ؟ ان الغناء لا يخاطب الاذن وحدها ،فتتأثر النفس ، وترق العاطفة في غموض ، بل هو يوقظ صورا ، يبعث الافكار في الذهن والعزيمة في القلب • »

ونادى يوكيم ذات مساء ، بينما كان يدخل الى الاسطبل وراء الصبي :

ـ هيه يوكيم ! ألا تترك قصبتك هذه مرة ؟ لو كنت طفلا من أطفال الشوارع ، أو راعيا صغيرا في الحقول لغفرنا لك ، ولكنك موجيك ، ولكنك رجل ، رغم أن تلك الحمقاء ماريا قد أحالتك ثورا حقا ! ويحك ! الا تستحي ؟ أدارت لك بنت ظهرها ، فاذا أنت خرقة رثة ! ••• انك تصفر طوال الليل كسماني في قفص ! •

حين سمع يوكيم هذا الخطاب الطويل من سيده الحانق ، لم يسعه الا أن يبتسم في الظلام من هذا الغضب الذي لا سبب له ••• ولم يزعجه شيء غير الاشارة الى الاطفال والرعاة الصغار • قال :

ـ ما ينبغي أن تقول هذا يا سيدي • شبابة كشبابتي ، لن تجدها عند أي راع كبير بأكرانيا ، فضلا عن الرعاة الصغار • هم عندهم قصبات ، أما شبابتي ••• يكفي أن تسمعني •

ثم سدبأصابعه جميع ثقوب نايه،وأخرج صوتين على الأوكتاف، وعجب هو نفسه من امتلاء الصوت ، فبصق العم مكسيم ، وقال :

ـ ما أبهمك ! ••• أأنا في حاجة الى سماع شبابتك ؟ انها جميعا سواء ، الشبابات والنساء ، ومن بينهـــا عزيزتك ماريا • أليس من الأفضل كثيرا أن تغنينا أغنية ، اذا كنت تعرف ••• طبعا ••• أغنية قديمة جميلة ، هه ؟

كان العم مكسيم ، الأكراني هو أيضا ، البسيط الصريح ؛ يعامل الفلاحين والخدم معاملة الند للند ، وكان يتفق له كثيرا أن

Twitter: @ketab_n

يصرخ وأن يشتم ، ولكن صراخه وشتمه كانا من الطيبة بحيث أن أحدا لا يستاء منه أو يحقد عليه ، وكان جميع الناس يعاملونـــه باحترام ، ولو على غير كلفة •

قال يوكيم يسخر قليلا من محدثه :

ـ ولم لا ؟ لقد كنت أغني فيما مضى ، وكان غنائي لا بأس به أبدا • ولكن يا سيدي قد لا تعجبك أغانينا نحن أبناء الموجيك ، هه ؟

فقال العم مكسيم :

ـ هيا ، هيا ، دعك من هذا الهراء ، شتان بين أغنية جميلة وبين شبابة ••• طبعا على شرط أن يتحمس المغني للأغنية • هيـا نسمع ، يا صغيري بطرس ، غناء يوكيم • ولكنني لا أدري هل تفهمه ؟

فسأل الطفل :

ـ اذا كانت الأغنية من أغاني الموجيك فأنا أفهم لغتها •

فزفر العم مكسيم • انه رجل رومانسي ،وطالما حلمبردالحريات القوزاقية فيما سلف من زمان ثم قال :

ـ آه يا بني ، هذه الأغاني ليست أغاني عبيد • انها أغاني شعب قوي حر • كان أجدادك لأمك يغنونها في سهوب دنيبر والدانوب والبحر الأسود ••• ستفهم هذا في يوم من الأيام ••• أما الآن (أضاف قوله هذا حالا) فأنني أخشى شيئا آخر •••

كان العم مكسيم يخشى نوعا آخر من سوء الفهم • كان يعتقد أن الصور القوية في الأغاني الملحمية التي تخاطب القلب ، تقتضي حتما تصورات بصرية • فكان يخشى أن يعجز دماغ الفتى المظلم عن ادراك هذه اللغة الملونة ، لغة الشعر الشعبي • لقد نسي أن الشعراء الشعبيين القـدامى ، المغنين الأكرانيين السابقـين ، والعـازفين على

Twitter: @ketab_n

الباندورا (١) كان معظمهم من العميان • ولئن كان صحيحا أن سوء الطالع أو التشوه هما اللذان كانا في كثير الأحيان ، يضطرانهم الى أن يحملوا بأيديهم قيثارة أو باندورا ، وأن يتسولوا يسألون الناس الصدقات ، فانهم لم يكونوا جميعا متسولين ذوي أصوات خناء ، ولم يفقدوا بصرهم جميعا في الشيخوخة • ان العمى يلف الكون كله بغشاء كثيف ، يجثم على الدماغ ، يضيم عمله ويعرقله • ولكن دماغ الأعمى ، بفضل المعاني الموروثة والاحساسات الواردة بطرق أخرى ، يخلق لنفسه في الظلام عالما خاصا به ، هو عالم غامض حزين عابس من غير شك ، ولكنه ليس خاليا كل الخلو من نوع خاص من الشعر الغامض •

١٢

جلس العم مكسيم وبطرس على كومة من العلف ، واستلقى يوكيم فوق خشب فراشه(كان هذا الوضع يناسب مزاجه الشعري)، وجعل يغني بعد لحظة من تفكير •

وكان اختياره موفقا ، لا أدري هل يعود ذلك الى المصادفة أو الى غريزته الفنية • لقد اختار أن يغني ذكرى تاريخية !

هناك على الهضبة الخضراء

يجمع الحصادون محصولهم

جميع الـذين أتيح لهم أن يسمعوا أداء جيدا لهذه الأغنيـة الشعبية الجميلة ، قد نقش في ذاكرتهم لحنها القديم ، الحاد ،البطيء، المتدثر بكآبة الذكريات التاريخية • ليس في الأغنية اشارة الى أحداث مدوية ، ومعارك دامية ، ووقائع كبيرة ••• وليست وداع قوزاقي

(١) آلة موسيقية شعبية قديمة ، وتريه •

Twitter: @ketab_n

لحبيبته الجميلة ، ولا أسفارا في البحر جريئة ، ولا غارة على الأعداء في عرض البحر أو في الدانوب • ما هي الا رؤيا سريعة ، تنبجس كالبرق من ذكريات أكراني ، هي حلم غامض ، هي قطعة من حلم توقظ ماضيا بعيدا • في غضون النهار الرتيب الذي تملؤه المشاغل اليومية ، تظهر اللوحة فجأة في خيال الاكراني ، غائمة مبهمة ، مدثرة بذلك الحزن الذي ينشر عبقه الزمان القديم الغالي في الأنفس ، الغائب ، واحسرتاه ! هو غائب •• نعم •• ولكنهما غاب دون أن يخلف آثارا •••؛ فعن تلك الأزمان المنقضية ، انما تحدثنا الى اليوم تلك الأحجار العالية من القبور التي تضم العظام القوزاقية ، وتشتعل عند منتصف الليل بلهيب قوزاقي ، وتخرج آهات مخنوقة صماء •

عن تلك الأزمان السحيقة انما تحدثنا الاسطورة وتحدثنا الأغنية الشعبية التي تنطفىء شيئا فشيئا :

هناك على الهضبة الخضراء
يجمع الحصادون محصولهم
وهنا على سفح الهضبة الخضراء
تسير كواكب فرسان القوزاق
تسير كواكب فرسان القوزاق

نسي العم مكسيم نفسه ، وهو يصغي الى الأغنية التي تفيض بالحزن • ان اللوحة التي يوحي بها اللحن الفاتن ، المتناسب كل التناسب مع موضوع الأغنية قد انبجست في خياله ، وكأنها مضاءة بأشعة الغروب الحزينة الكئيبة ! في الحقول الساكنة ، على الهضبة الخضراء ، ينحني حصادون صامتون ، يقطفون القمح • وتحت ، تمر مفارز محاربين صامتين ، واحدة اثر واحدة ، لتختفي بعد ذلك في ظلمات المساء الذي يجتاح الوادي •

Twitter: @ketab_n

ان النغمات الهادئة من هذه الأغنية القديمة تنبض ، وتهتز ، وتموت في الهواء ، ثم تترجع مرة أخرى ، تصور على صفحة الشفق وجوها ما تنفك تتجدد •

١٣

كان الطفل يصغي ، وقد أظلم وجهه وطاف به حزن عميق • وحين كان يوكيم يغني عن الهضبة التي يعمل فيها حصادون ، كان خيال الأعمى ينقله فورا الى قمة الصخرة التي صارت مألوفة له ، يعرفها من ذلك الصوت العذب ، الذي لا يكاد يدرك،صوت اصطفاق الموجة التي تلعب عند قدم الصخرة الكبيرة • وكان الأعمى يعرف يومئذ من هم الحصادون فكان صوت المناجل ، وحفيف السنابل ، يترامى الى سمعه واضحا ، حتى اذا أيقظت الأغنية صورة ما يجري تحت الهضبة ، هب خيال السامع الأعمى ، فهبط به فورا الى الوادي•

وينقطع صليل المناجل ، ولكن الطفل يعرف أن الحصادين ما يزالون هناك ، فوق الهضبة ، واذا لم يسمعهم ، فلأنهم عالون جدا ، علو أشجار الصنوبر التي يصغي الى همهمتها حين يكون في أسفل الصخرة • وتحت ، على محاذاة النهر ، يدوي وقع سنابك الخيول ، متساويا مرصوصا ••• انهم كثيرون ••• ان هديرا مضطربا يسمع في الظلال ، هناك ، عند أسفل الهضبة •••• انها « كواكب فرسان القوازق تسير • »

والطفل يعرف أيضا ما معنى « قوزاقي » • ان العجوز فدكو الذي يجيء اليهم من حين الى حين يعرفه جميع الناس بأنه « القوزاقي العجوز » ••• هكذا كانوا يسمونه • انه كثيرا ما يحمل الصغير بطرس الى ركبتيه ، ويأخذ يداعب شعره بيده المرتجفة ، وكان

Twitter: @ketab_n

الطفل حين يتلمس وجهه ، على عادته ، يحس تحت أصابعه بغضون عميقة ، وشاربين متهدلين ، ودموع تجري على الخدين الغائرين .

هكذا كان الطفل يتصور القوزاقيين هناك ، عند أسفل الهضبة ، وهو يصغي الى الأغنية . انهم يركبون خيولا ، وانهم مثل فـدكو تماما ، ذوو شوارب ، مقوسو الظهور ، طاعنون في السن ، انهـم يسيرون في الظلام كأشباح غامضة ، وانهم ، مثل فـدكو تمـاما يبكون ، ربما لأن الآهات الحزينة الشاكية ، آهات هذه الأغنية التي يغنيها يوكيم اليوم ، أغنية ذلك القوزاقي الطائش الذي باع امرأتـه الشابة بغليون وبصروف الحروب ، تتموج على الهضبة وفي الوادي .

كان يكفي أن يلقي العم مكسيم نظرة سريعة على الطفل حتى يرى أن طبيعته الحساسة كانت ، رغم العمى ، تدرك ما في الأغنية من صور شعرية .

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

١

بفضل النظام الذي وضعه العم مكسيم ، ترك الصبي الأعمى لقواه الخاصة ، في حدود الامكان . وما لبث هذا أن أحدث خير النتائج . ان من يرى الصبي في البيت لا يشعر ان به آفة . كان يتجول في البيت كله بخطى ثابتة موثوقة ، ويرتب غرفته بنفسه ، ويحفظ أشياءه ولعبه على نظام تام . وكان العم مكسيم ، فوق ذلك ، يعني بتمارين الطفل الجسمية ، ويشجعه على الرياضة . وحين دخل بطرس في السنة السادسة من عمره أهدى اليه العم مكسيم حصانا صغيرا مطواعا . وكانت الأم في أول الأمر لا تستطيع أن تتصور ابنها راكبا حصانا ، فعدت نزوة أخيها ضربا من الجنون ، ولكن الأبتر أعمل كل ما يستطيعه من تأثير ، فاذا الطفل ، بعد شهرين أو ثلاثة أشهر ، يمتطي صهوة جواده فرحا ، ويعدو به الى جانب يوكيم الذي لا يوصيه بشيء الا حين الوصول الى منعطف من المنعطفات .

وهكذا لم يحل العمى دون نمو الطفل نموا جسميا سليما ، كما أن تأثيره في حالة الطفل النفسية قد ضعف ، في حدود الامكان . كان بطرس فارع القامة ، ممشوقا ، اذا قيس بمن هم في سنه من الأطفال ، وكان وجهه شاحبا بعض الشحوب ، وكانت قسمات وجهه دقيقة معبرة ، وكان شعره الأسود يزيد شحوب وجهه وضوحا ، وكانت عيناه السوداوان الكبيرتان ، اللتان لا تتحركان الا قليلا ، تسبغان على وجهه تعبيرا خاصا ، يلفت النظر فورا . ثنية خفيفة فوق الحاجبين ، وعادة تقديم الرأس قليلا ، والحزن الذي يلم أحيانا

Twitter: @ketab_n

كالسحابة بالوجه الجميـــل ، هذا كل ما كان يشعر بأنه أعمى •
ورغم أن تجوله في الأماكن المألوفة كان ينم عن ثقة كبيرة ، فلقد كان
واضحا أن حيويته الطبيعية مكبوحة ، يتجلى ذلك في اندفاعات عصبية
مفاجئة من حين الى حين •



ان الاحساسات السمعية تلعب الآن في حياة الطفل الدور الأكبر،
وأصبحت الأصوات هي الأشكال الأساسية التي يتخذهـا فكره ،
وأصبحت هي مركز عمله العقلي • كان يحفظ ألحان الأغاني ، حتى
اذا استظهر كلماتها صبغها بالحزن أو الفرح أو الحلم • وكان انتباهه
الى أصوات الطبيعة التي تترامى اليه يزداد يوما بعد يوم • وكان يزاوج
بين احساساته الغامضة هذه وبين ألحان يعرفها ، فاذا هو في بعض
اللحظات يجمعها بنوع من الارتجال الحر الطليق يصعب عليـــك
فيه أن تعرف أين ينتهي اللحن الشعبي المعروف وأين يبدأ الابداع
الشخصي • حتى أنه هو نفسه كان لا يستطيع دائما أن يفصل بين
هذين العنصرين ، من فرط ارتباط كل منهما بالآخر • وكان يتعلم ،
بسرعة ، ما تعلمه اياه أمه : كانت أمه تعطيه دروسا في العزف على
البيانو ، ولكنه كان يحب شبابة يوكيم ، كسابق عهده • صحيح أن
البيانو أغنى وأحفل بالأصوات ، وصحيح أن أصوات البيانو أقوى ،
ولكن البيانو حبيس الغرفة ، أما الشبابة فيمكن أخذها الى الحقول
حيث تبلغ زقزقاتها من قوة الامتزاج بهمهمة السهوب العذبة ، أن
الصغير بطرس كان في كثير من الأحيان لا يدرك تمام الادراك هل
الريح هي التي تأتيه من بعيد بمعان غامضة متموجة ، أم أنه هو الذي
يخرج هذه المعاني من شبابته •

Twitter: @ketab_n

وأصبح حبه هذا للموسيقى هو القطب الذي يدور عليه نموه العقلي : كان حب الموسيقى يملأ حياته • واستفاد العم مكسيم من ذلك ، ليعلم الطفل تاريخ بلاده ، الذي يخطر أمام الأعمى نسيجا من الأصوات • كان اذ يولع بأغنية من الأغنيات،يحيط علما بأبطالها، وبمصائرهم ، وبمصير وطنه • ومن ثم نشأ شغفه بالأدب • وقد بدأ العم مكسيم دروسه الأولى حين دخل بطرس في السنة التاسعة من عمره • وكانت الطرائق البارعة التي يعمد اليها الرجل الأبتر في التعليم تعجب الطفل كثيرا،(يجب أن نذكر أن العم مكسيم اطلع على الأساليب الخاصة في تعليم العميان) • انها تدخل الى حياته النفسية عنصرا جديدا ، هو الدقة والوضوح اللذين يعدلان غموض الاحساسات الموسيقية •

وبذلك كان يوم الصبي يمتلئ تمام الامتلاء ، فلا يستطيع أبدا أن يشكو من فقر احساساته • كان يبدو أنه ينعم بحياة مليئة ، على قدر ما تسمح بذلك سنه • وكان يبدو أيضا أنه لا يشعر بعماه •

ومع ذلك فان حزنا غريبا ، ليس من الطفولة في شيء ، كان يسمم مزاج الصبي • وكان العم مكسيم يعزو ذلك الى أن الطفل ليس له رفاق ، فحاول أن يتدارك هذا النقص ، أن يسد هذه الثغرة •

كان أطفال القرية ، حين يدعون الى القصر ، يشعرون بشيء من الحرج والارتباك ، ولا يندفعون الى ألعابهم المعتادة في حرية وانطلاق ، أولا لأنهم لم يألفوا جو القصور ، وثانيا لأن عمى بطرس يدخل الى نفوسهم شيئا من الاضطراب • كانوا ينظرون اليه خجلين، وقد تجمع بعضهم الى بعض ، وصمتوا أو أخذوا يتهامسون • فاذا تركوا يلعبون وحدهم في الحديقة أو الحقول ، عادت اليهم حريتهم وحركتهم ، ولكن كان يلاحظ عندئذ أن الأعمى يظل دائما منزويا ، يصغي الى لهو رفاقه المرح ، حزينا كئيبا •

Twitter: @ketab_n

وكان يوكيم يحيط نفسه بالصبية الصغار أحيانا ، ويأخذ يروي لهم أقاصيص وحكايات مضحكة • والصغار في الريف يعرفون حكايات الشيطان الأكراني الغبي ، ويعرفون أقاصيص الساحرات الماكرات ، فكانوا يساعدون يوكيم في سرد حكاياته وفي تكميلها ، فكانت أحاديثهم تأخذ طابعا نشيطا حيا • وكان الأعمى يتابع كلامهم في كثير من الانتباه والاهتمام ، ولكنه كان لا يضحك الا نادرا ، كأن النكتة في الكلام الحي يفوته معظمها ، ولا عجب في ذلك ، فانه لايرى التوقد الماكر في عيني القصاص ، ولا غضونه التي تضحك ، ولا الحركة الهزلية في شاربيه الطويلين المتهدلين •



منذ مدة قصيرة ، تبدل مستأجر احدى الأراضي المجاورة ، وحل محل ذلك المستأجر الذي كان رجلا مشاكسا بدا له أن يقيم دعوى حتى على السيد بوبلسكي الوديع المسالم ، حل محله العجوز السيد ياسكولسكي وزوجته • ورغم أن مجموع عمري الزوجين لايقل عن مائة سنة ، فانهما لم يتزوجا الا منذ مدة قصيرة بعض القصر • ذلك أن السيد ياسكولسكي لم يتوصل الى جمع مبلغ من المال يكفي لاستئجار قطعة من الأرض الا في كثير من العناء ، وكان مضطرا الى أن يعمل قبل ذلك « محاسبا » لدى أناس أغنى منه •

وأما المرأة التي أصبحت فيما بعد مدام ياسكولسكا فقد كانت مضطرة الى أن تعمل هي أيضا ، بانتظار اللحظة السعيدة ، فكانت وصيفة للكونتيسة بوتوكا • وحين أزف يوم الزواج وذهب الخطيبان أخيرا الى الكنيسة ، كان في شعر العريس وفي شاربيه من الملح أكثر مما فيها من الفلفل ، وكان وجه العروس المحمر من الحياء والخفر محاطا بضفائر فضية •

Twitter: @ketab_n

على أن هذا لم يحل أبدا دون سعادة الزوجين ، وأنجب هذا الحب المتأخر طفلة وحيدة هي الآن في عمر الصبي الأعمى تقريبا •
كان الزوجان اللذان استقرا ، بعد تقدم السن ، في مكان يمكن أن يشعرا فيه بأنهما في منزلهما ، بعض الشيء ، يعيشان حياة هادئة متواضعة ، كأنهما يريدان أن يعوضا بهذا الهدوء وهذه العزلة عن السنين الشقية المليئة بالجلبة والصخب ، التي قضياها في بيوت الناس •

ولم تجيء غلتهما الاولى وافرة جدا ، فعزما على الاقتصاد قليلا في النفقات • الا أنهما منذ وصلا الى منزلهما الجديد استقرا على ما يحب ذوقهما ، وعلى ما ألفته عاداتهما • وكانت السيدة ياسكولسكا تحتفظ ، في ركن من الغرفة المزدانة بايقونات محاطة بأكاليل الزهر، الى جانب غصينات الصفصاف والشمعة ، كانت تحتفظ بأكياس صغيرة مليئة بالحشائش والزهور تطبب بها زوجها والفلاحين والفلاحات الذين كثيرا مايأتون اليها يستشيرونها • فكانت هذه الحشائش تملأ البيت كله بعطر خاص يرتبط ، في ذاكرة كل زائر ، بذكرى البيت الصغير النظيف ، بذكرى صمته وحسن ترتيبه والعجوزين اللذين يعيشان فيه حياة هادئة تبعث على الدهشة والعجب ، ويندر أن يرى مثلها في هذا الزمان •

في صحبة هذين العجوزين كانت تترعرع ابنتهما الوحيدة ، كنزهما الوحيد ، وهي صبية ذات ضفيرة طويلة شقراء ، وعينين زرقاوين ، تخطف أبصار الزائرين بما يلوح في وضعها كله من جد ورصانة ، حتى لكأن الوقار الذي اتصف به حب الأبوين المتأخر قد انعكس في طبع ابنتهما ، في رزانتها التي تضاهي رزانة الكبار ، في هدوء حركاتها ، فيما يلوح في عينيها الزرقاوين من تفكير وعمق • وكانت الصبية لا تخشى الغرباء ، ولا تهرب من مصاحبة الأطفال الذين هم

Twitter: @ketab_n

في سنها ، بل تشاركهم ألعابهم راضية ، ولكنها تفعل كل ذلك في نوع من التنازل صادق كل الصدق ، كأنها شخصيا لا تشعر بأية رغبة في اللعب ، وكانت في الواقع تكتفي بمصاحبة نفسها ، تتنزه ، وتقطف الأزهار ، وتحادث عروستها ، تحادثها في جد يشعرك أحيانا بأنك أمام امرأة صغيرة لا طفلة .

٤

كان بطرس جالسا ذات يوم وحيدا فوق هضبة صغيرة تطل على النهر . وكانت الشمس تغيب . وكان يخيم في الهواء هدوء مطلق ، فلا يصل الى الهضبة من الأصوات ، الا ثغاء قطعان المواشي عائدة الى القرية ، تسمع بعيدة بعيدة . كان الصبي قد فرغ من العزف ، وانقلب على العشب ، واستسلم استسلاما لذيذا لسحر الخدر في هذه الأمسية من أماسي الصيف ، ورنق النوم في عينيه ، فاذا بوقع خطوات خفيفة يوقظه من اغفائه ، فنهض قليلا عن كوعه منزعجا ، وأصاخ بسمعه . وقفت الخطى عند أسفل الهضبة الصغيرة، فلم يتعرفها الصبي ، ثم اذا هو يسمع صوتا طفليا يصيح به قائلا :

ـ هيه ، أيها الصبي الصغير ، هل تعلم من كان يعزف هنا منذ قليل ؟

وكان الطفل لا يحب أن يعكر أحد عليه عزلته ، فأجاب فيما يشبه العبوس :

ـ أنا ...

فكان الجواب على هذا التصريح صيحة خفيفة تفيض بالدهشة ، وأضاف صوت الفتاة بعد برهة يقول في استحسان ساذج :

ـ ما كان أجمل هذا العزف !

Twitter: @ketab_n

وصمت الأعمى . ثم قال أخيرا ، وقد لاحظ أن الدخيلة ما تزال مرابطة في ذلك المكان نفسه :

ـ لماذا لا تذهبين ؟

فسألته البنية بصوتها المندهش الواضح البارع :

ـ ولماذا تطردني ؟

ان هذا الصوت الطفلي الناعم يطرب سمع الأعمى . ولكنه أجاب بتلك اللهجة نفسها :

ـ لا أحب أن يراني أحد .

فأخذت البنية تضحك ، وقالت :

ـ عجيب ! وهل الأرض كلها لك وحدك ، فتمنع أي انسان من التنزه فيها ؟

ـ ان أمي تمنع جميع الناس من المجيء الى هنا .

فقالت الصبية ، مفكرة :

ـ أمك ؟ وأمي أنا وعدتني بأن تنزهني على ضفة النهر ...

كان الطفل مدللا يتسامح معه الناس في كل أمر . ولم يتعود أن يسمع اعتراضات من هذا القبيل ، فغضب غضبا شديدا ظهر أمواجا عصبية في وجهه ، فنهض وقال بسرعة في لهجة مهتاجة :

ـ اذهبي ، اذهبي ، اذهبي !

يستحيل أن نعرف كيف كان يمكن أن تنحل عقدة هذا المشهد . ولكن في تلك اللحظة نفسها دوى صوت يوكيم يدعو الصبي الى تناول الشاي . فهبط بطرس من على الهضبة راكضا ... فسمع وراءه هذه الملاحظة المليئة باستياء صادق :

ـ آ ... يالك من ولد سيء !

Twitter: @ketab_n

٥

وجلس الطفل في الغد في ذلك المكان نفسه ••• وتذكر لقاء الأمس • ان هــذه الذكرى لم تحتفظ بأي أثر من آثار الحنق • بالعكس ، انه يتمنى لو تعود ، تلك البنية ذات الصوت الهادئ ، الممتع • لم يسمع في حياته صوتا كهذا الصوت • الأطفال الـذين عرفهم ، كانوا يصرخون صراخا قويا ، وينفجرون في ضحك مقهقه، ويتخاصمون ويبكون ، ولكن ما من أحد منهم كان يتكلم على هــذا النحو الآسر الأخاذ • وأسف الطفل على أنه جرح تلكالمجهولة التي لعلها لن تعود أبدا •

وفي الواقع ، غابت الطفلة ثلاثة أيام • ولكن في اليوم الرابع ، سمع بطرس وقع خطواتها تحت ، على ضفة النهر • كانت تسير على مهل ، وكانت الحصى الصغيرة على ضفة النهر الحجيرة تصل تحت قدميها صليلا خفيفا • وكانت تدندن أغنية بولونية •

فناداها الطفل حين وصلت الى حيث يمكن أن تسمعه ، قائلا :

ـ اسمعي ••• هذه أنت !

ولكن البنية لم تجب • وظلت الحصى الصغيرة تصل تحت قدميها • وشعر الأعمى الصغير أن في صوتها الذي يتكلف عــدم المبالاة وهو يدندن الأغنية ، شيئا من الحنق ما يزال يحيا في نفسها •

ومع ذلك توقفت المجهولة بعد بضع خطوات • وانقضت دقيقتان أو ثلاث دقائق في صمت • كانت ترتب باقة من أزهار الحقول في يدها ، بينما كان بطرس ينتظر جوابهــا • وأدرك الصبي في هــذا التوقف وفي الصمت الذي أعقبه شيئا من الاحتقار •

Twitter: @ketab_n

قالت أخيرا ، في كثير من العزة ، وقد توقفت عن ترتيب أزهارها :

ـ ألا ترى أنني أنا ؟

ان هذا السؤال البسيط دوى في نفس الأعمى ألما ممضا ! فلم يجب ، ولكن يديه اللتين كانتا تستندان الى الأرض تمسكتا بالعشب في تشنج • غير أن الحديث كان قد بدأ على أي حال ، فسألته وهي ما تزال واقفة في مكانها تعبث بأزهارها :

ـ من ذا الذي علمك هذا العزف البارع على الناي ؟

ـ يوكيم

ـ حسن جدا ••• فلماذا غضبت في المرة الماضية ؟

ـ لم أغضب ••• منك

قال الصبي ذلك بصوت خافت جدا •

ـ اذن حسن ••• ما دام الأمر كذلك ، فأنا أيضا زال غضبي ••• هل تريد أن تلعب معي ؟

ـ لن أعرف أن ألعب معك •

أجاب بطرس بذلك ، خافضا رأسه •

ـ لا تعرف أن تلعب ؟ لماذا ؟

ـ هكذا •

ـ لا ، لكن لماذا ؟

ـ هكذا •

قال الصبي ذلك بصوت خافت لا يكاد يدرك ، وهو يخفض رأسه أكثر •

لم يتفق له أن حدث أي انسان عن آفته • وهذه اللهجة البريئة التي تخاطبه البنية بها وهي تلح في سؤالها الحاحا ساذجا ، حزت في نفسه كثيرا •

Twitter: @ketab_n

وتسلقت المجهولة على الرابية ٠ حتى اذا وصلت اليه ، جلست الى جانبه ، وقالت بلهجة الأسف المليءْ بالملاطفة :

ـ عجيب أنت ٠ لعل ذلك يرجع الى أنك لا تعرفني ٠ متى عرفتني فلن تخشاني أما أنا فلا أخشى أحدا ٠

كانت تتكلم بوضوح هادئ ، وسمعها الطفل تضع في مئزره باقة من الزهر :

ـ من أين قطفت هذه الأزهار ٠

ـ من هناك ٠

قالت ذلك وهي تشير برأسها الى مكان وراءها ٠

ـ من المرعى ؟

ـ لا ، من هناك ٠

ـ اذن من الغابة الصغيرة ! ولكن ما هي هذه الأزهار ؟

ـ أأنت لا تعرف الأزهار ؟ انك اذن لعجيب٠٠٠عجيب جدا ٠

فأمسك الأعمى الصغير بزهرة ، وتلمست أصابعه أوراقها وتويجها بسرعة وقال :

ـ هذه زر الذهب ٠٠٠ وهذه بنفسجة ٠

ثم أراد أن يتعرف الى محدثته الجديدة ، بهذه الطريقة نفسها ، فأمسكت يده اليسرى بكتف البنية ، بينما راحت يده اليمنى تجس شعرها ، فحاجبيها ، ثم طافت أصابعه على وجهها بسرعة ، متوقفة في بعض الأحيان لدراسة القسمات المجهولة بمزيد من الانتباه ٠

تم ذلك كله بسرعة وعلى غفلة ، فلم يتسع وقت البنية ، وقد صعقت من الدهشة ، لأن تنبس بكلمة واحدة ، بل حدقت فيه مبحلقة ، وقد تملكها عجب يكاد يكون خوفا ٠ وعندئذ فقط ، لاحظت شيئا غريبا في وجه رفيقها الجديد ٠ كانت قسماته الدقيقة

Twitter: @ketab_n

الشاحبة قد تجمدت تعبر عن انتباه متوتر لا يتناسب وسكون النظرة •
كانت عينا الصبي تنظران الى مكان ما ، لا تحفلان أبدا بما كان يعمله، وكانت أشعة الأصيل تنعكس على حدقتيهما انعكاسا عجيبا • وخيل الى البنية ، لحلال لحظة قصيرة ، أنها في حلم عجيب •

ثم سحبت كتفها من يد الصبي ، وهبت تقف على قدميها فجأة ، وأخذت تبكي ، وصاحت بصوت مهتاج تقول من خلال دموعها :
ـ لماذا تخيفني هكذا أيها الولد السيء ؟ ماذا صنعت لك ، أنا ؟ لماذا ؟

كان جالسا في مكانه نفسه ، واجما ، خافض الرأس ، وقد تملكه شعور غريب ، هو مزيج من الحنق والمذلة ، فملأ نفسه ألما عنيفا حادا • انه ، لأول مرة في حياته ، يشعر بالمذلة من أنه ذو عاهة • لأول مرة في حياته ، يعرف أن عاهته لا تثير العطف فحسب، بل والذعر أيضا • صحيح أنه لا يستطيع أن يكون لنفسه فكرة واضحة عن الشعور الذي يرهقه،ولكن هذا الشعور لا يمنعه غموضه وابهامه من أن يكون شاقا أليما •

واختنق حلق الصبي بألم محرق ، فانقلب على العشب وطفق يبكي • كانت شهقاته تزداد شيئا بعد شيء ، وكان جسمه الصغير يتشنج ، لا سيما وأن عزته التي فطر عليها كانت تجبره على كبح هذه النوبة العصبية •
كانت البنية قد هبطت من على الرابية راكضة ، ولكنها حين سمعته ينتحب ، التفتت دهشة ، فرأت رفيقها الجديد منكبا بوجهه على الأرض يبكي بدموع حارة ، فأخذتها به شفقة ، فعادت تصعد الرابية على مهل ، وتوقفت على مقربة من الطفل الباكي ، وقالت بصوت خافت :

Twitter: @ketab_n

ـ اسمع ، لماذا تبكي ؟ لعلك تظن أنني سأشكوك ؟ هيا ، كفاك بكاء ، لن أقول لأحد شيئا !

ولكن هذا الكلام العذب وهذه اللهجة الملاطفة من البنية،زادت نوبة بكائه قوة وعنفا ، فقرفصت الى جانبه ، وظلت على هذه الحال نصف دقيقة ، ثم أخذت تلامس شعره برفق ،وتداعب رأسه•وبحزم أم حنون تهدي طفلها المعاقب ، أنهضت رأس الأعمى ، وراحت تجفف بمنديلها عينيه المليئتين بالدموع ، وقالت بلهجة امرأة حقة :

ـ هيا ••• كفى بكاء • لست الآن زعلانة • انني أرى أنك نادم على اخافتي •••

فقال وهو يزفر زفرة عميقة ليكبح ثورة بكائه :

ـ أنا لم أرد أن أخيفك •

ـ طيب ، طيب • لست زعلانة • لن تفعل ذلك بعد الآن ، أليس كذلك ؟

وأنهضته وأجلسته الى جانبها •

وخضع لها الطفل • انه يجلس الآن كما كان جالسا من قبل ، وقد أدار وجهه للشمس التي تغيب • فلما تفرست الطفلة مرة أخرى في رفيقها الصغير ، وقد أضاءته الأشعة الحمراء الساقطة عليه من الشمس ، بدا لها أغرب وأعجب مما بدا لها في المرة الأولى • كانت عيناه الممتلئتان بالدموع ساكنة جامدة ، وكانت قسمات وجهه تتقبض تقبضا عصبيا ، ولكنها تنم في الوقت نفسه عن كرب عميق ، ساحق ، لا يمت الى الطفولة بصلة من الصلات •

قالت بلهجة مشفقة حالمة في آن واحد :

ـ انك لغريب مع ذلك •

فأجاب الطفل وقد تصعر وجهه من شدة الألم :

ـ لا •• لست غريبا •• لست غريبا ابدا •• أنا •• أنا •• أعمى •

Twitter: @ketab_n

ـ أ ... ع ... ـمى

قالت الصبية ذلك بصوت بطيء ارتعش فجأة ، كأن هذه الكلمة الحزينة التي قالها الطفل في رفق ، قد فطرت أعماق قلبها ، قلب المرأة .

ثم كررت بصوت زاد ارتعاشا :

ـ أ ... ع ... ـمى

وكأنما أرادت أن تدرأ عن نفسها ما انتابها من شعور بالشفقة لا يقاوم ، فقبلت عنق الصبي فجأة ، وشدت وجهه الى وجهها .

ولكن المرأة الصغيرة التي صعقها اكتشافها الرهيب لم تجد من القوة ما يساعدها على البقاء في مستوى دورها ، بل عادت طفلة حزينة ، لا تملك لكربها دفعا ، فأخذت تذرف هي الأخرى دموعا مرة ...

٦

انقضت بضع دقائق في صمت .

وانقطعت البنية عن البكاء . لقد سيطرت على نفسها ، وأصبحت لا تشهق الا من حين الى حين . كانت عيناها المبتلتان تتأملان الشمس ، فتحس أن الشمس تدور في جو الغروب المتوهج ، وهي تنحدر وراء حاجز الأفق المظلم . وتألقت القطعة الذهبية من كرة النار مرة أخيرة ، ثم ومضت شرارتان أو ثلاث شرارات ، وفجأة برزت الحواشي المظلمة من الغابة البعيدة خطا أزرق متصلا .

وهبت نسمة طرية من النهر ، وانعكس هدوء المساء العذب على وجه الأعمى . كان جالسا ، خافض الرأس ، يدهشه ، فيما يبدو ، هذا العطف الحار الذي يلقاه من الصبية . وقالت البنية أخيرا بين شهقتين :

Twitter: @ketab_n

ـ خسارة ...

كأنها تريد أن تعلل ضعفها .

ثم استردت رباطة جأشها قليلا ، وأحبت أن تغير الحديث ، وأن تجد موضوعا هادئا يمكن أن يجولا فيه بغير مبالاة . وقالت أخيرا ، مفكرة :

ـ غربت الشمس

فكان جواب الصبي ، المليء بالحزن ، أن قال :

ـ لا أعرف كيف هي ... ولكنني أستطيع ... أن أحسها فقط .

ـ لا تعرف الشمس ؟

ـ لا ...

ـ وأمك ... ألا تعرفها أيضا ؟

ـ بل أعرفها ... أمي ... أتعرف خطواتها دائما ، من بعيد .

ـ نعم ، نعم ، صحيح . وأنا أيضا أتعرف أمي ، مغمضة العينين .

ودار الحديث أهدأ مما كان . قال الأعمى ، وقد أخذ يتكلم بشيء من الحرارة :

ـ هل تعرفين ... انني أحس الشمس ، وحين تغرب، أعرف تماما أنها غربت .

ـ كيف تعرف ذلك ؟

ـ لأنني ... تفهمين ... أنا نفسي لا أدري كيف ..

فقالت البنية ، وقد لاحت راضية جدا بهذا الجواب :

ـ ها! ...

وصمت الاثنان . ثم استأنف الصبي الصغير يقول :

Twitter: @ketab_n

ـ أنا أعرف القراءة ، وقريبا سأتعلم الكتابة بريشة •

ـ ولكن كيف ؟•••

بدأت تطرح السؤال ، ثم صمتت فجأة ، على حياء واضطراب، لأنها لا تريد الاسترسال في هذه الأسئلة المحرجة • ولكنه فهمها ، فقال يشرح :

ـ أقرأ في كتابي الخاص ، بأصابعي •

ـ بأصابعك ؟ عجيب ! أنا ، مثلا ، لا أستطيع أبدا أن أقرأ بأصابعي ، وقراءتي رديئة ، حتى بالعينين • يقول أبي ان النساء لا تفهم العلوم الا قليلا •

ـ حتى أنني أستطيع القراءة باللغة الفرنسية •

ـ باللغة الفرنسية ؟ وبأصابعك أيضا ؟ ما أذكاك اذن !

هتفت بذلك في اعجاب صادق • ثم أضافت :

ـ ولكن اسمع ••• أخشى أن يصيبك برد • ما أكثر الضباب على النهر !

ـ وأنت ؟

ـ أنا لا أخاف ، لا يهمني البرد •

ـ اذن فأنا أيضا لا أخاف • هل يعقل أن يصاب رجل بالبرد بأسهل مما تصاب به امرأة ؟ العم مكسيم يقول ان على الرجل أن لا يخاف من أي شيء ، لا من البرد ولا من الجوع ولا من الرعد ، ولا من المطر •

ـ مكسيم ؟ أهو ذلك الرجل الذي يسير متوكئا على عكازين ؟ لقد رأيته • انه مخيف !

ـ لا ، أبدا ، ليس مخيفا • بل بالعكس ••• طيب جدا •

فكررت الصبية بقناعة تامة :

ـ بل انه مخيف ! أنت لا تعرفه لأنك ما رأيته •

Twitter: @ketab_n

ـ كيف لا أعرفه وهو الذي يعلمني كل شيء ؟

ـ هل يضربك ؟

ـ هو ؟ انه لا يضربني أبدا ، ولا يغضب معي أبدا ، أبدا …

ـ هــذا حسن • وهل يمكن أن يضــرب طفل أعمى ؟ ان هذا لاثم !

ـ ولكنه لا يضرب أحدا •

قــال بطــرس هذا ذاهلا ، لأن أذنــه المرهفــة سمعت وقــع خطوات يوكيم •

وما هي الا برهة حتى ظهر ، فعلا ، جسم الأكراني الضخم القوي ، على القمة المتعرجة من الرابيةالتي تفصل ضفة النهر المنحدرة عن المزرعة ، ودوى صوته بعيدا في صمت المساء :

ـ هيه ، هيه ، هيه ، يا ـ •• ـ •• د بط •• ر •• س ..

فقالت الصبية وهي تنهض :

ـ انهم ينادونك

ـ نعم ، ولكنني لا أريد أن أذهب •

ـ اذهب ، اذهب ••• سأجيء اليك غدا • انهم ينتظرونك الآن ، وانا أيضا ينتظرونني •

٧

ولم تخلف الصبية ميعادها ، حتى لقــــد جاءت أبكر مما كان يتوقع الصغير بطرس • ففي صباح الغد ، بينما كان يكتب وظائفه ، على عادته ، في غرفته ، بحضور العم مكسيم ، رفــــع رأسه فجأة ، وأصاخ بسمعه لحظة ، ثم قال في كثير من الحرارة والانتعاش :

ـ دعني أخرج دقيقة واحدة • ان بنتا صغيرة جاءت الي •

Twitter: @ketab_n

فقال مكسيم دهشا :

ـ بنت صغيرة ؟ أي بنت صغيرة ؟

وتبع الصبي الذي كان يتجه نحو باب المدخل •

وفي الواقع ، كانت رفيقة الأمس الصغيرة قد دخلت فناء المنزل في تلك اللحظة ، فلما رأت آنا ميخائيلوفنا ، مضت اليها رأسا •

فسألتها أم بطرس ، وقد حسبت أنها تجيء لشأن من الشئون :

ـ ماذا تريدين يا حبيبتي ؟

فمدت لها المرأة الصغيرة يدها ، في كثير من الجد والرصانة ، وسألتها بدورها :

ـ هل هنا يسكن صبي صغير أعمى ؟ نعم ؟

ـ نعم هنا ، يابنتي •

قالت السيدة ذلك ، وهي تلقي على العينين الزرقاوين نظرة اعجاب ، وتستحلي هذه السهولة والخفة في حركات الزائرة الصغيرة •

ولكن ، في تلك اللحظة نفسها أسرع اليها بطرس ، وظهر العم مكسيم على الباب •

قال الصبي لأمه ، وهو يحيي صديقته الجديدة :

ـ هذه ، يا أماه ، هي البنت التي لقيتها أمس ، وحدثتك عنها • ولكنني أكتب الآن وظائفي •••

قالت الأم لابنها :

ـ سيعفيك منها العم مكسيم ، هذه المرة ••• سأستأذنه في ذلك •

وفي أثناء ذلك كانت المرأة الصغيرة ، التي شعرت هنا كأنها في بيتها ، قد اتجهت نحو العم مكسيم الذي وصل متوكئا على عكازتيه ، فمدت اليه يدها ، وقالت له بلهجة الاستحسان اللطيف :

ـ جميل منك أنك لاتضرب طفلا أعمى • لقد قال لي ذلك •

فهتف العم مكسيم يقول في جد مضحك :

Twitter: @ketab_n

ـ مستحيل ، ياسيدتي العزيزة •

وتناول اليد الصغيرة بيده العريضة ، وأردف يقول :

ـ اني لأشكر تلميذي أجزل الشـــكر على أنه أرضى عني انسانة عذبة مثلك ، يابنتي العزيزة •

وأخذ يضحك وهو يدغدغ اليد الصغيرة التي ظل ممسكا بها •

وظلت البنت تتفرس فيه بنظراتها الصريحة التي سرعان ما غزت قلب العجوز الأبتر ، المبغض للنساء • وقال لأخته ، وهو يبتسم ابتسامة غريبة :

ـ شيء عظيم ! لقد أخذ بطرسنا الصغير يعقد علاقات خاصة • ويجب أن تعترفي ، ياعزيزتي آنا ، انه رغم العمى قد أحسن الاختيار ، أليس كذلك ؟

فسألته المرأة الشابة في شيء من القسوة ، وقد صعد الدم الى وجهها :

ـ ماذا تريد أن تقول بذلك ، يامكس ؟

فأجاب الأخ الذي يوجز في الكلام ، وقد لاحظ أنه ضرب على الوتر الحساس ، واكتشف الفكرة الخفية التي نبتت في قلب الأم البصير :

ـ مالك ؟ أنا أمزح •

فازداد احمرار آنا ميخائيلوفنا ، وانحنت بحرارة تقبل الطفلة في عاطفة فائرة قوية • فتقبلت الطفلة هذه المداعبة العنيفة ، وهي تنظر تلك النظرة الصافية المضيئة نفسها ، مع شيء من الدهشة •

٨

منذ ذلك اليوم توثقت العلاقات بين أسرة المستأجر ياسكولسكي

Twitter: @ketab_n

وأسرة الملاك بوبلسكي ، وصارت البنت الصغيرة ، وتدعى ايفلين ، تجيء كل يوم ، وأصبحت بعد ذلك بقليل تلميذة العم مكسيم •

في أول الأمر لم يرتح السيد ياسكولسكي كثيرا لهذه « المدرسة المختلطة » وكان يرى أولا ـ أن المرأة يكفيها من العلم أن تستطيع تسجيل الغسيل وتنظيم دفتر النفقات • وكان يرى ثانيا ، بصفتــه كاثوليكيا صالحا أن العم مكسيم قــد اخطأ في محاربة النمسويين ، وخالف ارادة الأب المقدس• وكان أخيرا يؤمن ايمانا لا يتزعزع بان الله موجود ، وأن فولتير وجميع الفولتيريين قد صاروا الى جهنم يصلون فيها نارا حامية ، وأن هذا المصير ينتظر العم مكسيم ، في رأي جميع الناس • ولكنه بعد أن تعرف الى العم مكسيم ، اعترف بأن هــذا الرجل الزنديق المقاتل شخص رقيق الحاشية حسن المعاشرة ، وعلى جانب عظيم من الذكاء ، فقرر أن يرضى بالأمر •

غير أن شيئا من القلق ظل قائما في أعماق نفس العجوز البولوني المهذب ، لذلك حين قاد ابنته الى أول درس ، استحسن أن يوجــه اليها هذا الخطاب القصير ، الضخم المنفوخ ، الذي قصد به العــم مكسيم أكثر مما قصد به ابنته • قال وهو يمسك كتف ابنته وينظر الى أستاذها المقبل :

ـ اسمعي يابنتي ، اسمعي ما سأقوله لك • لاتنسي أبدا أن في السماوات ربا ، وأن أبانا المقدس ، البابا ، الذي يقيم بروما ، هــو ممثل الرب على الارض • أنا ، فالانتين ياسكولسكي ، أقول لك ذلك • ويجب أن تصــدقي ما أقــول ، لأنني أبوك • هــذا أولا Primo)

قال ذلك وقذف العم مكسيم بنظرة معبرة • لقد استعمل هــذه الكلمة اللاتينية ليفهم العم مكسيم أنه ليس غريبا عن العلوم ، وأن التغرير به أمر صعب • ثم أضاف :

Twitter: @ketab_n

ـ ثانيا (Secondo) ، أنا رجل بولوني ، نقش على أسلحتي صليب ، الى جانب المسن والغراب • ان آل ياسكولسكي ، الفرسان الشهيرين ، طالما اشتروا بسيوفهم كتاب القداس ، وكانوا يعرفون شئون دينهم حق المعرفة • وهذا اذن سبب آخر يدعوك الى الثقة بي تماما • وفيما عدا ذلك ، أي فيما يتصل بشئون الأرض ، فأوصيك بطاعة مكسيم ياتسنكو ، وادرسي جيدا •

فأجاب العم مكسيم على هذه المقدمة ، مبتسما ، يقول :

ـ لاتخف ياسيد فالانتين • اننا لانجند لجيوش غاريبالدي آنسات صغيرات •

٩

استفاد الطفلان كلاهما من هذا التعليم المشترك • صحيح أن بطرس كان متقدما على رفيقته ، ولكن ذلك كان لاينفي أبدا أن يقوم بينهما شيء من التنافس • ثم ان الطفل كان يساعد رفيقته الصغيرة ، في بعض الأحيان ، على كتابة وظائفها ، وكانت هي ، من جهتها ، توفق في كثير من الأحيان الى طرائق ناجحة في شرح ما يصعب عليه فهمه بسبب عماه • أضف الى ذلك أن وجود ايفلين كان يبث في دراسة الطفل شيئا خاصا ، ويغذي عمله العقلي بحرارة ممتعة •

وصفوة القول ان هذه الصداقة كانت هبة عظيمة من القدر الرحيم • أصبح الطفل الصغير لاينشد الوحدة المطلقة لأنه وجد في صحبة ايفلين ذلك الشيء الذي كانت عاطفة الكبار لاتستطيع أن تهبه له ، فكان حتى في لحظات أحلامه الهادئة ، يحب أن يشعر أنه معها • كانا يذهبان كل يوم معا الى الرابية الصغيرة أو الى النهر •

Twitter: @ketab_n

وكانت الصبية ، اذا عزف بطرس على الناي ، تصغي اليه في اعجاب ساذج • حتى اذا وضع الناي جانبا ، أخذت تشرح له احساساتهـــا الطفلية العنيفةِ بالطبيعة التي تحيط بهمَا • ولئن كانت عاجزة ، بعد ، عن التعبير عن تلك الاحساسات تعبيراكاملا ، لأن الألفاظ تعوزها ، فلقد كان بطرس ، في مقابل ذلك ،يدرك في كلامها البريء ، وفي نبرات صوتها بوجه خاص ، الطابع الفردي للظاهرة التي تصفها له• كانت تحدثه مثلا عن الغسق الذي يهبط على الأرض في مساء رطب مظلم ، فكان كأنه يسمع في النبرات الحبيسة من صوتها المتردد ، هبوط الظلمات ••• وكانت ترفع وجهها الحالم قائلة : « يالهـذه السحابة ، ما أشد سوادها ، ما أشد سوادها ! » فاذا هو يحس بوعا من النسمة الباردة ، واذا هو كأنه يسمع في صوت رفيقته ، خشخشة شيطان لعين يزحف في مكان من السماء عاليا عاليا •

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

١

ثمة أناس كأنهم هيئوا لتلك التضحيات الخرساء التي يقتضيها حب يفيض بالكروب والهموم ، أناس كأن الآلام الناشئة عن أحزان الآخرين هي جوهم الطبيعي ، هي حاجة لهم عضوية • لقد وهبت لهم الطبيعة ذلك الهدوء الذي لولاه ما أمكنت التضحية في كل يوم • وبحكمتها ، جعلت غرائزهم ومطامحهم الشخصية معتدلة واخضعتها لتلك الصفة المسيطرة في خلقهم ، حتى لقد تبدو طباعهم في بعض الأحيان باردة ، مفرطة في التعقل ، محرومة من العواطف • انهم يصمون آذانهم عن نداء الحياة الصاخب ، ويسيرون في الطريق الشاقة ، طريق الواجب ، هادئين ، هادئين ، كأنهم يمشون في طريق السعادة الكاملة • لهم من الذرى المغطاة بالثلج برودتها ، ولهم ايضا جلالها ••• لاترقى الى علاهم هموم هذه الحياة الدنيا ، همومها المبتذلة ، ولا تمس الغيبة والنميمة ثيابهم الطاهرة برجس ، كما لا يوسخ الطين ريش البجعة •

كذلك كانت ايفلين ••• ان صديقة بطرس الصغيرة تتحلى بجميع خصائص هذا الطبع الذي قلما تجود الحياة بمثله ، وقلما تصنع التربية مثله •• هو ، كالموهبة ، كالعبقرية ، وقف على المختارين ، يظهر منذ نعومة الأظفار • كانت أم الطفل الأعمى تدرك كل الادراك السعادة التي هبطت على ابنها في هذه الصداقة الجميلة ، صداقة الأطفال • وكان العم مكسيم يفهم ذلك هو ايضا ، وكان يظن أن تلميذه أصبح ينعم الآن بكل ما أعوزه في الماضي ، وأن نموه الروحي

Twitter: @ketab_n

سيجري بعد اليوم هادئا مطردا ، لايمكن أن يعكره شيء •••
أخطأ العم مكسيم •••

٢

كان العم يظن ، في السنين الأولى من حيـاة بطرس ، أنه الشخص الوحيد الذي يجب أن يوجه النمو النفسي في الطفل ، أو على الأقل ، اذا لم يتم هذا النمو بتأثيره المباشر ، فما من تغير أو تقدم يمكن أن يطرأ ، دون أن يلاحظه ، وان يراقبه • ولكن حين دخل الطفل في تلك المرحلة من الحياة ، التي هي مرحلة الانتقال بـــين الطفولة والمراهقة ، لاحظ العم مكسيم أن أحلامه التربوية المزهوة كانت لاتقوم على أساس • فلقد كان كل أسبوع تقريبا يأتي بشيء جديد ، واحيانا بشيء لا يمكن توقعه أبدا في أعمى • وحين كان العم مكسيم يحاول أن يكتشف مصادر فكرة جديدة أو مفهوم جديد لدى الأعمى ، كان يتيه ويضل •

ان قوة مجهولة تتدفق في أعماق نفس الطفل، وتخرج من هذه الأعماق مظاهر ليست في الحسبان، من نمو روحي مستقل كل الاستقلال• وكان لايسع العم مكسيم الا أن ينحني ، باحترام ، أمام هـــذه العمليات الخفية من عمليات الطبيعة التي تتدخل هكذا في عمله التربوي• كانت اندفاعات الطبيعة هذه ، وتلك التجليات المباغتة ، تخبيء للطفل معارف لايمكن أن تهبها التجربة الشخصية لأعمى ، وكان العـــم مكسيم يكتشف هنا ذلك الارتباط الذي لا انفصام له، بين الظاهرات الحيوية التي ان تبعثرت في ألوف من المراحل ، فانها شمل سلسلة طويلة من حيوات البشر •

وأوجس العم مكسيم شرا من هذه الملاحظة ، في أول الأمر •

Twitter: @ketab_n

لقد أدرك أنه لا يتحكم وحده بروح الطفل ، وأن روح الطفل هذه يؤثر فيها شيء مستقل عنه كل الاستقلال ، فقلق لمصير هذا الصبي الذي كفله ، وخشي أن تظهر حاجات جديدة تسبب للطفل آلاما ليس له الى دفعها من سبيل • وحاول أن يعرف أصل هذه الينابيع التي لايدري الا الله من أين تنبجس ، وذلك بغية أن ••• يسدها ، لخير الأعمى الصغير •

وقد لاحظت الأم أيضا هذه الظاهرات التي ليست في الحسبان• وفي ذات صباح هرع الطفل اليها ، مضطربا أشد الاضطراب ،وصاح يقول :

ـ أماه ، أماه ، لقد رأيت حلما ؟

ـ ماذا رأيت يا حبيبي ؟

قالت ذلك بصوت حزين ، مليء بالشكوك •

ـ رأيت في منامي أنني رأيتك ••• أنت والعم مكسيم ••• ورأيت أيضا أنني أرى كل شيء •• ماكان أجمل هذا ياأمي الحبيبة ، ما كان أجمله !

ـ وماذا رأيت أيضا يابني ؟

ـ لا أتذكر •

ـ ولكن هل تتذكرني أنا ؟

فأجاب الصبي الصغير واجما :

ـ لا ••• لا ••• لقد نسيت كل شيء ••

وأضاف بعد لحظة من صمت يقول :

ـ ولكنني رأيت •

ثم أظلم وجهه ، وهطلت دمعة كبيرة من عينيه •

وتكرر ذلك عدة مرات ، وكان بطرس يزداد ، في كل مرة ، حزنا وقلقا •

Twitter: @ketab_n

٣

بينما كان العم مكسيم يجتــاز فناء المنــزل ذات يوم ، اذا هو يسمع أصوات تمرينات موسقية غريبة ، صادرة من الصالون الذي اعتاد بطرس أن يتلقى فيه دروسه الموسيقية • ضربات غزيرة متعاقبة سريعة ، تكاد تنصهر كل منها في الأخرى ، تخرج أول الأمر أعلى نغمة من نغمات البيانو ، ثم تخرج بعد ذلك ، على حين فجأة ، أخفض صوت من أصوات السلم المنخفض • وأراد العم أن يعرف ما عسى أن يكون معنى هذه التمارين ، فاجتاز الفناء وهو يعرج ، ودخـل الصالون بعد دقيقة ووقف جــامدا على العتبة ، وقد صعقه مشهـد لا يتوقعه :

كان الصبي ، الذي يخطو في السنة العاشرة من عمره ، جالسا على كرسي صغير جدا ، بين قدمي أمه ، والى جانبه وقف لقلق داجن يمط رقبته ويحرك منقاره الطويل • (ان يوكيم هو الذي أهدى الى سيده الصغير هذا اللقلق منذ مدة قصيرة • فكان بطرس يطعم الطير في كل صباح ، وكان الطير يصحب صديقه وسيده الجديد الى كـل مكان) • كان الصبي ، وقد ركز انتباهه أشد التركيز ، يعانق الطير باحدى ذراعيه ، ويطوف بيده الأخرى على ريشه ، وكانت الأم ،وقد توقد وجهها كالنار من شدة التهيج ، وطاف بعينها حزن شديد، تضرب بيدها على اصبع من أصابع البيانو بسرعة ، فتخرج منه أصواتا حادة تهتز في الهواء بلا انقطاع ، وتتفحص وجه ابنها في عصبية ، وقـد انحنت من على مقعدها الى أمام ، حتى اذا وصلت يد الطفل التــي تنزلق فوق الريش الأبيض المتلألىء ، الى الحد الذي يفصل بــين البياض والسواد من ريش الطير فجأة ، نقلت آنا ميخائيلوفنا يدها نقلا

Twitter: @ketab_n

سريعا الى الطرف الآخر من مفاتيح البيانو ، وأخذت تخرج أصواتا صماء تتدحرج في أرجاء الغرفة •

وكان الاثنان كلاهما ، الأم وابنها ، قد بلغا من شدة الاستغراق في هذا العمل ، أنهما لم يلاحظا مجيء العم مكسيم ، فلما عاد العم مكسيم الى نفسه قليلا ، قطع الجلسة قائلا :

ـ آنا ، عزيزتي ، ما معنى هذا ؟

فلما التقى نظر المرأة الشابة بنظرة أخيها المتفرسة ، شعرت بالخجل ، كأن معلما صارما قبض عليها متلبسة بالجرم • قالت مرتبكة :

ـ ان •• ان ••• قال لي بطرس انه يدرك شيئا من الفرق بين ألوان ريش اللقلق ، ولكنه لا يفهم على وجه الدقة ما هو هذا الفرق • أقسم لك أنه هو الذي حدثني في هذا الأمر أولا ، ويخيل الي أنه على حق •

ـ ثم ؟

ـ ثم ••• ثم لا شيء ! أردت فقط أن أسهل الأمر قليلا ••• أن أشرح له هذا الفرق بين الألوان ،بواسطةالفرق بين الأصوات •• هذا كل شيء ••• لا تغضب يا مكس ، يلوح لي أن هناك شيئا يشبه ذلك •

صعق العم مكسيم من هذه الفكرة العجيبة ، حتى أنه لم يستطع ، في اللحظة الأولى ، أن يجيب بشيء •ثم طلب منها أن تكرر التجربة ، وبعد أن لاحظ علامات التوتر في وجه الطفل ، هز رأسه بالنفي • وحين خلا بأخته قال لها :

ـ أطيعيني ، يا آنا ، يجب أن لا توقظي في نفس الطفل أسئلة لن تستطيعي أبدا أن تجيبي عليها اجابة شافية •

فقاطعته آنا ميخائيلوفنا تقول :

Twitter: @ketab_n

ـ ولكنه هو الذي تحدث عن هذا قبلي •

ـ لا بأس ••• ليس على الطفل الا أن يعتاد عماه • أما نحن فيجب أن ننسيه الصور • أنا أفعل كل شيء من أجل أن أجنبه التأثيرات الخارجية التي يمكن أن تحمله عن طرح أسئلة عقيمة • واذا ظفرنا بابعاد هذه التأثيرات لم يشعر الطفل بثغرات في احساساته • مثلا ، نحن الذين نملك خمس حواس ، لا نتألم من اننا لا نملك حاسة سادسة ••• اذن ؟

فأجابت المرأة الشابة تقول بصوت خافت جدا :

ـ بل نتألم يا مكس •

ـ آنيا

فأجابت آنا في اصرار ، تقول :

ـ نعم ، نعم ، نتألم ••• كثيرا ما نتألم من أننا لا نملك المستحيل •

على أن الأخت خضعت لحجج أخيها ، هذه المرة • ولكن العم مكسيم الذي أراد أن يبعد التأثيرات الخارجية عن الفتى ، كان على خطأ • لقد نسي كل النسيان تلك الاندفاعات العارمة القوية التي بثتها الطبيعة في نفس الصبي •

٤

قال أحدهم : « العينان مرآة النفس ! » ربما كان من الأصدق أن نشبههما بالنوافذ التي تدخل منها الى النفس تأثيرات هذا العالم المضيء ، الساطع ، الملون • من ذا الذي يستطيع أن يعين الجزء الذي يتعلق منا بالاحساسات البصرية ؟

ان كل انسان حلقة صغيرة في سلسلة لا نهاية لها من الحيوات،

Twitter: @ketab_n

تمر به من أعماق ماض سحيق الى مستقبل لا غاية له • فهـل اذا شاء حادث مشئوم أن تغلق النوافذ في حلقة من هذه الحلقات ، لدى الطفل الأعمى الذي فرض عليـه أن تغرق حيـاته كلها في ظلام دامس ، هل اذا وقع ذلك نشأ عنه أن جميع الحبال التي تستجيب بها النفس للتأثيرات الخارجية تتقطع الى الأبد ؟ لا • ان الاحساس الداخلي بالنور لا بد أن يبقى ، وهو ، رغم الظلمات التي يضطرب فيها ، مدعو الى أن ينتقل الى الأجيال اللاحقة • ان الطفل الأعمى يملك نفسا انسانية ، تامة سوية ، حافلة بجميع ملكاتها، ولما كانت كل ملكة تحمل في ذاتها الرغبة في أن تتحقق ، فان في نفس الطفل المظلمة اندفاعا نحو النور لا يمكن اخماده •

هناك في مكان ما من الأعماق الخفية ، على صورة غامضة من الامكانيات ، ترقد قوى وراثية ، كامنة ، تهم أن تهب الى لقاء أول شعاع مضيء • ولكن النوافذ تظل مغلقة • لقد تعين قدر الطفل • فلن يرى ذلك الشعاع المضيء ،وستنقضي حياته كلهافي الظلمات!•••

وكانت هذه الظلمات تعج بالأشباح •

ولو أن حياة الطفل تنقضي في حرمان وكرب ، اذن لانصرف ذهنه الى الأسباب الخارجية لأكداره • ولكن الناس الذين يحيطون به ، كانوا يجنبونه كل ما يمكن أن يحزنه : كانوا يكفلون لـه الهدوء والسكون ، فأصبح هذا الصمت نفسه الذي يرين على نفسه يتيح لما في أعماقه من اصطخاب أن يظهر بوضوح ما ينفك يزداد • في الصمت والليل اللذين يجتاحانه ، كان ينبجس الشعور الغامض الدائم بحاجة تبحث عن الارتواء ، وكانت تولد الرغبة الجارفة القوية في فتح الباب للقوى التي تغفو في أعماق نفسه •

ومن ثم استباقات واندفاعات شبيهة بتلك الرغبة في الطـيران ، التي يشعـر بهـا كل انسان في طفولتـه ، وتتجلى في تلك السن أحلاما رائعة •

Twitter: @ketab_n

ومن ثم ، أخيرا ، جهود غريزية يقوم بها فكر الطفل ، وهذا التساؤل القلق المطبوع في قسمات وجهه • كانت « الامكانيات » الوراثية للتصورات البصرية التي لايستعملها في حياته ، تنبجس في رأسه الصغير أشباحاً لا شكل لها ، غامضة ، مبهمة ، تبعث على جهود ضخمة ليست بذات هدف واضح •

كانت الطبيعة تثور ثورة لا شعورية على « الحالة الفردية » التي شذت عن قانون الحياة العام •

٥

هكذا ، رغم كل ما فعله العم مكسيم لابعاد جميع « المؤثرات الخارجية » ، لم يستطع أبدا أن يلجم الدفقة الداخلية من حاجة ظامئة لا تجد سبيلها الى الارتواء • وكل ما استطاع أن يبلغه بحذره واحتراسه هو أن لا يوقظ هذه الحاجة قبل الأوان ، وأن لا يزيد آلام الأعمى • أما في كل ما عدا ذلك ، فكان لا بد للمصير الأليم الذي كتب على الطفل ، أن يتحقق مع كل مايترتب عليه من نتائج •

كان هذا المصير يقترب ، كسحابة قاتمة سوداء • كانت حيوية الطفل الطبيعية تنقص كلما تقدم الطفل في السن ، كموجة تنحسر ، وكان استعداده النفسي للحزن والكآبة ينمو شيئا فشيئا ، ويؤثر في مزاجه • ان ضحكته التي كانت ترن في طفولته من تلقاء ذاتها ، عند كل احساس جديد قوي بعض القوة ، أصبحت لا تسمع الآن الا نادرا • وأصبح كل ما يضحك وكل ما هو مرح مطبوع بطابع النكتة ، لا يدركه الصبي الا قليلا • وفي مقابل ذلك ، أصبح يدرك أروع ادراك كل ما يشتمل على شيء من الحزن الغامض ، والكآبة المبهمة ، في طبيعة الجنوب، وفي أغاني الشعب • أصبحت الدموع تترقرق في عينيه كلما سمع كيف « يتحدث القبر في السهوب الى

Twitter: @ketab_n

الرياح » ، وأصبح يحب كثيرا أن يذهب الى الحقول لسماع أصواتها •

وظهر فيه ميل الى الوحدة يزداد قوة يوما بعد يوم • فكان ينتهز ساعات الفراغ ، فيذهب يتنزه وحده ، وكانوا يحرصون على أن لا يسيروا الى جانبه ، حتى لا يعكروا عزلته • حتى اذا جلس على أكمة في السهوب ، أو على رابية عند ضفة النهر،أو على الصخرة التي كان يكثر من المجيء اليهـــا ، لم يسمع الا حفيف أوراق الأشجار ، وهمهمات الأعشاب ، وآهات الريح الغامضة ، فكان هذا كله ينسجم وحالته النفسية انسجاما خاصا • كان هنا يفهم الطبيعـة أكمل فهم ، في حدود قدرته على فهمها • انهـا لا تعذبه بأسـئلة واضحة ومستحيلة الحل في آن واحد • كانت الريح تنفذ الى قلبه ، وكان العشب كأنه يهمس له بكلام رقيق حنون • وحين كانت نفس المراهق تمتليء بهذا الانسجام العذب الذي يحيط بها ، وترق عاطفتها من هذه الدغدغات الدافئة تداعبه بها الطبيعة ، كان يشعر بشيء يصعد في صدره ، ويتسع ثم يتسع ، ثم يجتاح كيانه كله ، عنـدئذ كان ينكب برأسه على العشب الطري الرطب ، ويأخذ يبكي بكاء هـادئا عذبا ، بكاء ليس في دموعه مرارة • وكان في بعض الأحيان يتناول شبابته ، شارد اللب ، فيرتجل ألحانا حالمة تعبر عن عواطفه ، وعن سكون السهوب العميق •

وطبيعي أن أي جلبة انسانية في تلك اللحظا ت ، كانت تفسد على بطرس ما هو فيه من افتتان ، وتشعره بتنافر فظ أليم • كان في مثل تلك اللحظات لا يستطيع أن يتواصل الا مع نفس واحدة صديقة ، قريبة حقا ••• ولم يكن للطفل الا صديق واحد في سنه ، هو تلك الصبية الشقراء التي تسكن الأرض المجاورة •

كانت هذه الصداقة تتوثق يوما بعد يوم ، وتتميز بتبادل كامل•

Twitter: @ketab_n

كانت ايفلين تحمل الى الأعمى هدوءها الساحر ، وفرحها الهادئ العذب ، وتطلعه على تفاصيل جديدة في الحياة التي تحيط بهما ، وكان بطرس من جهة يهب لها ... أمله . كأن اللقاء الأول مع الأعمى الصغير قد خلف في قلب المرأة الصغيرة،هذا القلب الحساس، جرحا عميقا ، فهي لا تستطيع أن تخرج من جرحها الخنجر الذي طعنها به ،مخافة أن تموت من نزيف الدم . لقد شعرت ايفلين يوم عرفت الصبي الأعمى ، على الرابية ، في السهوب ، بآلام الشفقة والرحمة حادة قوية ، ومنذ ذلك الحين أصبح وجود بطرس حاجة ماسة لها ، لا تستطيع أن تستغني عنها . كانت تشعر شعورا واضحا أن الجرح ينكأ حين تبتعد عن بطرس ، وأن الأذى يعود ، فكانت تهرع عندئذ الى صديقها الصغير ، تخفيفا لآلامها الخاصة برعاية حنون لا تنقطع .

٦

في أمسية ناعمة من أماسي الخريف كان أفراد الأسرتين جالسين أمام البيت يتأملون ، في اعجاب ، السماء ذات النجوم ، وزرقتها القاتمة العميقة ، المتلألئة بالأضواء . وكان الأعمى ، على عادته ، جالسا الى جانب صديقته ، بالقرب من أمه .

وسكتوا في لحظة من اللحظات ، وكان صمت عميق يخيم حولهم ، فلا يسمع الا حفيف أوراق الشجر ناعما هادئا ، من حين الى حين .

واذا بشهاب ساطع ينبثق من أعماق السماء ، ويرسم على زرقتها خطا مضيئا ، تاركا وراءه سحابة متوهجة تنطفئ ببطء .

فرفع الجميع أعينهم ، وأحست آنا ميخائيلوفنا ، التي كانت

Twitter: @ketab_n

جالسة الى جانب الطفل تماما ، وكانت ممسكة بيده ، أحست بالطفل يرتعش ويضطرب • ثم سألها وهو يدير اليها وجهه المهتاج :

ـ ما هذا ؟

ـ نجم سقط ، يا صغيري •

ـ ها •• نعم •• نجم •• كنت أعرف ذلك •

قال هذا واجما مفكرا • فسألته الأم ، بلهجة حزينة ، وهي لا تصدق ما يقول :

ـ كيف تستطيع أن تعرفه يا صغيري ؟

فتدخلت ايفلين في الحديث قائلة :

ـ نعم ، نعم ، صحيح ما يقول ••• انه يعرف كثيرا من الأشياء ••• « هكذا » •••

ان هذه الحساسية التي تزداد رهافة يوما بعد يوم ، كانت تنبيء بأن بطرس يقترب من تلك السن الحرجة التي تفصل المراهقة عن الشباب • ولكن نموه ، بانتظار ذلك ، كان يسير في شيء من الهدوء • حتى لقد كان يشعر المرء أن الصبي تلاءم مع مصيره ، وأن ذلك الحزن المتوازن توازنا غريبا ، الذي لا يضيئه أمل ولا تعكره اندفاعات أليمة ، ذلك الحزن الذي كان نسيج حياة الصبي ، قد تلطف الآن قليلا • ولكن ذلك لم يكن الا هدنة قصيرة • كأن الطبيعة تمنح مثل هذه الهدنات القصيرة عن قصد ، كي يقوى الجسم ، ويتهيأ لمواجهة هزة جديدة • وفي هذه الفترات القصيرة من الهدوء انما تتراكم مشكلات جديدة وتنضج • فما هي الا صدمة بسيطة ، اذا بالتوازن النفسي كله يترنح ، كالبحر حين تهب ريح عاتية مباغتة •

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

١

انقضت بضع سنين ...

لم يتغير في القصر شيء ... أشجار الزان ما تزال تهمهم في الحديقة ، ولكن أوراقها أصبحت أدكن وأكثف . والبيت الأبيض مايزال على حاله من الحفاوة ، ولكن جدرانه خسفت قليلا.وسقوف التبن في ملحقات المنزل ما تزال تخشخش على عهدها ... وحتى شبابة يوكيم ما تزال تسمع في تلك الساعات نفسها ... مع فرق واحد ، هو أن يوكيم الذي مايزال عانسا وما يزال سائسا ، أصبح الآن يؤثر أن يسمع سيده الشاب يعزف هو نفسه على الناي أو على البيانو .

وزاد الشيب في شعر العم مكسيم . وكان الأعمى الذي ليس لأسرة بوبلسكي ولد سواه ، ما يزال كما كان في أولى أيامه القطب الذي تدور عليه حياة القصر كلها . وكان الأعمى قد حبس نفسه في دائرة ضيقة جدا ، مكتفيا بحياته الخاصة الهادئة التي تشبه كثيرا الحياة الهادئة في المزرعة المجاورة .

هكذا ترعرع بطرس الذي أصبح مراهقا شيئا بعد شيء ، كما تترعرع زهرة من الأزهار التي تستنبت في بناء من الزجاج يرد عنها غائلة البرد ... كان في منجى من التأثيرات العنيفة ، تأثيرات الحياة البعيدة .

كان الأعمى ، على سابق عهده ، في قلب عالم واسع مظلم ، يمتد الليل فوقه ومن حوله الى غير نهاية ... وكان كيانه كله مرهفا

Twitter: @ketab_n

حساسا الى أبعد حدود الرهافة والحساسية ، كأنه وتر مشدود ، يهم أن يهتز مستجيبا لأي مؤثر • وكان هذا الانتظار العصبي يلاحظ في مزاج الأعمى ، فكثيرا ما كان يحس أن الليل سيمد اليه يدا خفية ، ويلامس في نفسه ذلك الشيء الذي يرقد وينتظر اليقظة •

ولكن الليل المألوف في القصر ، هـــذا الليل الناعم الرنيب ، كان لا يسمعه الا ذلك الحفيف اللطيف في الحديقة القديمة ، ذلك الحفيف الذي يغرقه في أحلام غامضة مهدئة • أما العالم البعيد فكان الأعمى لا يعرفه الا من خلال الاغاني والكتب • وكانت أحاديث أهله ، بين وشوشات البستان المهدهدة ، بعد أيام في الريف هادئة ، لا تحمل اليه من جلبة الحياة البعيدة ومن زوابعها الا صدى ضعيفا • وكان هذا كله يلوح من خلال حجاب مسحور ، كأغنية ، كحكاية ، كحلم •••

كان يبدو أن الأمور تسير على ما يرام • وكانت الأم ترى أن نفس ابنها ، وقد انحبست بين هذه الأسوار ، تغفو في حلم مسحور ، حلم كاذب ولكنه هادئ ، وكانت تخشى أن تقطع هذا الحلم •

وفي أثناء ذلك كانت ايفلين قد شبت وأينعت شيئا فشيئا ، وكانت تتأمل هذا الهدوء المسحور بعينيها الصامتتين ،اللتين يلاحظفيهما أحيانا نوع من الدهشة أو القلق من المستقبل ، ولكنهما لا تظلمان بأي تعبير عن نفاد الصبر في أية حال •

وكان الأب بوبلسكي يدير أعمال مزرعته على أكمل صورة ، ولكن الرجل الطيب كان لا يقلق كثيرا لمستقبل ابنه • لقد تعود أن تجري الأمور على أعنتها وأن تنحل المشكلات من تلقاء ذاتها • ولا كذلك العم مكسيم ، فقد كانت طبيعته من طينة أخرى ، فكان يصبر في كثير من العناء على هذا الهدوء الذي يعده حالة موقتة ، والذي يدخل في حساب ما رسم من خطط • كان يرى أن من الضروري

Twitter: @ketab_n

تقويـة نفس المـراهق ، حتى تكون قادرة على أن تقـاوم صدمـة الحياة العنيفة •

وفي أثناء ذلك ، كانت الحياة ، وراء هذه الدائرة ، المسحورة ، تضطرب ، وتغلي ، وتعصف • وها هو ذا المربي العجوز يقرر ذات يوم أن يحطم هذه الدائرة ، أن يفتح باب البناء الزجاجي ، حتى يدخل من الخارج تيار من الهواء طري جديد •



وكان أول مـا فعلـه أنه دعـا رفيقا قديمـا من رفاقه يدعى سترافروتشنكو ، ويسكن على مسافـة ٧٠ فرسخا من قصر أسـرة بوبلسكي • وكان العم مكسيم قد اختلف الى صاحبه في سالف الأيام، ولكنه يعرف الآن أن في بيته شبابا يقضون بعض الوقت في زيارة ، فكتب اليه يدعو الجماعة كلها •

وقبلت الدعوة بسرور•ان العجوزين صديقان منذ مدة طويلة، والشباب يتذكرون اسم مكسيم ياتسنكو ، الذي كان فيما مضى علما يتحدث عنه الناس •

كان أحد ابني ستافروتشنكو يتم دراسته بجامعة كييف ، في كلية الآداب ، التي كانت رائجة جدا في ذلك العهد • وكان ابنه الآخر يدرس الموسيقى في كونسرفاتوار بطرسبرج • وقد صحبهما رفيق شاب لهما ، هو طالب في مدرسة عسكرية ، وابن أحد الملاكين الجيران •

كان ستافروتشنكو عجوزا قوي البنية أشيب الشعر ذا شاربين طويلين ، وسروال عريض ، على زي القـوزاق • وكان يتدلى من حزامه غليون وكيس للتبغ ، وكان لايتكلم الا اللغة الاكرانية • كان

Twitter: @ketab_n

الى جانب ابنيه اللذين يرتديان ملابس بيضاء ، تحتها قمصان أكرانية مطرزة ، أشبه بتاراس بولبا • ولكنه كان مع ذلك مبرأ تماما من تلك الرومانسية التي يتميز بها هذا البطل الشهير من أبطال غوغول • فلقد كان ، على خلاف ذلك ، ملاكا من ملاكي الأراضي عمليا جدا ، عرف كيف يتلاءم كل التلاؤم مع نظام القنانة ، حتى اذا ألغي ذلك النظام عرف كيف يتلاءم أيضا مع الظروف الجديدة •

وكان يعرف الشعب كسائر السادة الريفيين ، أي أنه كان يعرف جميع فلاحي أرضه بأسمائهم ، ويعرف جميع بقرابهم ، ويعرف ما في جيب كل واحد منهم ، لا يخطيء في ذلك الا بنحو روبل واحد •

واذا كان لا يختصم مع ابنيه ضربا بالأيدي مثل تاراس بولبا ، فلقد كانت تقوم بينه وبينهما خصومات عنيفة لا تنقطع • كانت تثور بين الأب وابنيه ، سواء أكانوا في البيت أم في زيارة ، مناقشات طويلة لأتفه سبب من الأسباب ، وكانت تبدأ المناقشات عادة ، بأن يناكد الأب ابنيه واصفا اياهما بأنهما « مثاليان » ، فيتحمس الابنان ، ويتحمس أبوهما ، ويبدأ صخب عنيف لا يصدق ، لأن كلا الفريقين يصر على موقفه •

كان ذلك صورة من التعارض التقليدي بين « الآباء والأبناء » ، مع فرق واحد هو أن هذه الظاهرة تتجلى في أسرة ستافروتشنكو في صورة مخففة كثيرا •

كان الشباب يرسلون الى المدرسة في سن غضة ، فكانوا لا يرون الريف الا أثناء العطل المدرسية ، وهي قصيرة جدا ، لذلك كانوا لا يعرفون الشعب تلك المعرفة المحسوسة التي يتمتع بها « الآباء » • فلما راجت في المجتمع فكرة « حب الشعب » ، كان الشباب قد وصلوا الى الصفوف العليا من الكليات • فأخذوا يدرسون الشعب ،

Twitter: @ketab_n

ولكنهم أخذوا يدرسونه في الكتب • وكانت الخطوة الثانية بعد ذلك، أن أخذوا يدرسون الشعب دراسة مباشرة ،في مبدعاته،فكان الطلاب يرتدون الملابس البيضاء والقمصان المطرزة على زي الموجيك ، ويذهبون الى الريف ليتصلوا بالشعب اتصالا مباشرا • تلك كانت « الموضة » في ذلك الوقت ، وكانوا يعنون كثيرا بدراسة الظروف الاقتصادية ، بل يلاحظون الأغاني الشعبية ، كلماتها وألحانها ، ويدرسون الأساطير ، ويقارنون بين الوقائع التاريخية وبين انعاكسها في ذاكرة الشعب ، أي كانوا ، على وجه العموم ، ينظرون الى الفلاح من خلال تلك النظارة الشعرية ، نظارة الرومانسية القومية • والحق أن الشيوخ لم يكن لهم على هذا كله اعتراض ، ولكنهم كانوا لا يتوصلون الى التفاهم مع الشباب •

قال ستافروتشنكو للعم مكسيم متخابثا ، وهو يلكزه بكوعه ، بينما كان الطالب يتحدث متقد الوجه ، متلألئ العينين :

ــ انظر الى هذا السفيه كيف يتحدث مثل كتاب ! لو سمع كلامه سامع ، لظن أن له دماغا مع ذلك ! ولكن قل لنا أنت ، أيها الرجل العالم ، كيف استطاع صاحبنا نتشيبور أن يضحك عليك •

وأخذ العجوز يحرك شاربيه ويضحك ضحكا عاليا ، وهو يقص الحادثة بفكاهة أكرانية صافية • واحمر وجه الشباب خجلا ، ولكنهم لم يسكتوا على ضيم ، قالوا « لئن كانوا لا يعرفون فدكو أو نتشيبور من هذه القرية أو تلك من القرى ، فانهم يدرسون الخصائص المميزة للشعب بأكمله ، اذ ينظرون الى الشعب من أفق عال ، هو الأفق الوحيد الذي يمكن من الوصول الى نتائج وتعميمات واسعة حقا • انهم يطلون بنظرة واحدة على رؤى بعيدة المدى ، أما الشيوخ الممارسون ، الغارقون في الروتين الى الأذقان ، فانهم يرون الأشجار ، واحدة واحدة ، رؤية ممتازة ، ولكنهم لا يرون الغابة

Twitter: @ketab_n

بأكملها • » •

ولم يكن يسيء العجوز أن يصغي الى الخطب الفقيهـــــه يلقيها ابناه •

قال وهو ينظر الى المستمعين في رضى :

ـ واضح أنهم لا يضيعون وقتهم في المدرسة سدى • ولكن ، مع ذلك ، اليكم ما سأقوله لكم : ان صاحبنا فدكو ، على أنه موجيك بسيط ، يستطيع أن يجركم بطرف خيط ، كما تجر الأبقار ، نعم • أما أنا فأستطيع أن أطويه أربع طيات ، ثم أضعه في كيس التبغ ، هذا المكار فدكو ، ثم أدسه في جيبي ، أي ما أنتم أمامي الا جـراء صغيرة أمام كلب ضخم •



انتهت واحدة من هـــذه المناقشات ، وعاد الشـــيوخ الى البيت ، وكانت تسمع من النوافذ المفتوحة من حين الى حين أصوات ستافرتشنكو يقص ، بلغته الممتعة ، حكايات هزلية،وأصوات مستمعيه ينفجرون في قهقهة •

أما الشباب فقد ظلوا في الحديقة • بسط طالب كييف معطفه الأكراني على الأرض ، واستلقى على العشب في سهولة لا تخلو من ادعاء ، دافعا قلبقه الفرائي حتى النقرة ، وجلس أخوه الأكبر مـع ايفلين على درجات الباب ، وقعد الى جانبهما الضابط المقبل ، وقد فك أزرار سترته حتى الياقة • وبعيدا عنهم ، وقف الأعمى خافض الرأس ، متوكئا على مسند النافذة ، وهو يفكر في المناقشـات التي انتهت والتي هزت نفسه هزا عميقا •

قال الشاب ستافروتشنكو لجارته :

Twitter: @ketab_n

ـ ما رأيك يا آنسة ايفلين ؟ أظن أنك لم تدعي كلمة من كلمات مناقشاتنا تفوتك ، أليس كذلك ؟

ـ كل هذا حسن ، أعني ما قلته لأبيك ، ولكن ...

ـ ولكن ماذا ؟

لم تجب الفتاة فورا ، بل وضعت « شغلها » على ركبتيها ، وانحنت تنظر فيه واجمة مفكرة ، لايدري المرء أهي تحضر جوابها أم تفكر في البدء بكنويشة جديدة .

قالت بصوت خافت ، وهي تستمر في الاهتمام بتطريزها :

ـ ولكن ... أرى أنا أن لكل انسان طريقته الخاصة في الحياة ...

فصاح الفتى قائلا :

ـ ها ... يا لها من حكمة ! هل لك أن تقولي لي ، يا آنستي، ما عمرك ؟

فقالت ببساطة :

ـ سبعة عشر عاما .

ثم أردفت في استطلاع ساذج ظافر :

ـ ظننتني أكبر سنا من هذا ، أليس كذلك ؟

وأخذ الشباب يضحكون .

ـ اذا سألني أحد عن عمرك ، لترددت في الواقع بين الثالثة عشر والثالثة والعشرين .أحيانا يخيل الى المرء أنه أمام بنت صغيرة جدا وأحيانا تفكرين تفكير امرأة عجوز خبرت الحياة .

فقالت المرأة الصغيرة بلهجة متعالمة ، وهي تستأنف تطريزها :

ـ اسمع يا غافريلو بتروفتش : في الأمور الجدية ، يجب أن يفكر الانسان تفكيرا جديا .

وصمت الجميع لحظة ، واستأنفت ابرة ايفلين سيرها المنتظم ،

Twitter: @ketab_n

بينما راح الشباب ينظرون في كثير من الاستطلاع والدهشة الى الآنسة الصغيرة التي تفيض بالحكمة •

٤

صحيح أن ايفلين كانت تكبر وتنمو منذ أيام لقائها الأول مع بطرس ، ولكن ملاحظة الطالب كانت صادقة كل الصدق • اذا القى الانسان نظرة أولى على هذه المخلوقة الصغيرة النحيلة ، حسب أنها ما تزال بنية صغيرة ، ولكن حركاتها البطيئة الموزونة تدل على نضج المرأة الواثقة من نفسها • وكذلك وجهها • يبدو أن وجوها كهذه لاترى الا بين النساء السلافيات • ان قسماتها الجميلة المتسقة قد خطت خطوطا قوية مدورة • والعينان الزرقاوان تنظران اليك نظرة هادئة •وقلما يصطبغ وجهها بالحمرة • ولكن شحوبها ليس ذلك الشحوب العادي الذي يهم أن يلتهب في كل لحظة بتأثير هوى حار عنيف • انه أشبه ببياض الثلج البارد • وكان شعر ايفلين الأشقر ، الذي يضرب الى قليل من السواد عند صدغيها العاجيين ، يتهدل ضفيرة واحدة كأنها تشد رأسها الى وراء حين تكون سائرة •

والأعمى قد صار شابا كذلك • اذا رآه راء على حالته تلك من الشحوب والانفعال والجمال ، منتحيا جانبا بعيدا عن الناس ، لخطف بصره هذا الوجه الأصيل الذي تنعكس عليه جميع حركات النفس انعكاسا واضحا الى أبعد حدود الوضوح • كان شعره الأسود يتموج تموجا رشيقا حلوا على جبينه العالي ، المغضن قبل الأوان • وكانت وجنتاه سرعان ما تلتهبان بألوان قوية ، ثم سرعان ما تعودان الى شحوبهما الكابي • وكانت شفته السفلى ، المنخفضة قليلا عند الطرفين ، تختلج من حين الى حين،وكان حاجباه يتوتران ويضطربان

Twitter: @ketab_n

قلقين ، وكانت عيناه ، الكبيرتان الجميلتان ، اللتان تنظران الى العالم نظرة ساكنة جامدة ، تضفيان على وجه الشاب سحابة من حـزن ومن كآبة غريبة .

قال الطالب ساخرا بعد صمت قصير :

ـ اذن ... فالآنسة ايفلين تعتقد أن كل ما قلناه منذ لحظة هو من الأمور التي لا يبلغها عقل المرأة ، وأن مصير المرأة محدود بحدود تلك الدائرة الضيقة ، غرفة الأولاد والمطبخ .

وكانت لهجة الشاب تفيض بالاكتفاء بالنفس وبالسخر المتحدي (كانت هذه الكلمات جارية مجرى « الموضة » في تلك الأيام)،فلزم الجميع الصمت بضع لحظات ، واصطبغ وجه الفتاة بحمرة عصبية . قالت :

ـ أنت تتعجل قليلا فيما تستخلصه من نتائج . لقد فهمت كل ما قيل هنا ، واذن فعقل المرأة قادر على الفهم والادراك . وانا لم أتحدث منذ لحظة الا عن نفسي شخصيا .

فدمدم يقول :

ـ غريب ... لكأنك قد نظمت منذ الآن كل حياتك ، حتى القبر !

فأجابت ايفلين بهدوء :

ـ ما وجـه الغرابة يا غـافريلو بتروفتش ؟ أظن أن ايليـا ايفانوفتش نفسه (هذا هو اسم التلميذ الضابط) قد نظم حياته منذ الآن ، وهو مع ذلك أصغر مني سنا !

فقال ايليا ، وقد سر بهذه الملاحظة :

ـ صحيح . لقد قرأت منذ مدة قصيرة حياة الجنرال الشهـير نن ... لقد عاش حياته كلها وفقا للخطة التي رسمها لها فيشبابه. وتزوج في العشرين من عمـره ، وكان في الخـامسة والثلاثـين

Twitter: @ketab_n

يقود جيشا •

ضحك الطالب ضحكة ساخرة ، واحمرت الفتاة قليلا •

وقالت بعد دقيقة ، ببرودة في الصوت مباغتة :

ـ هاءنت ذا ترى اذن أن لكل انسان طريقة في الحياة •

لم يعارضها أحد ، وخيم على الشبان الثلاثة صمت ، صمت فيه شيء من الارتباك المباغت : لقد فهم الجميع فهما غامضا أن الحديث قد ضرب على وتر شخصي ، أن وترا شخصيا قد اهتز تحت هذه الكلمات البسيطة •

وفي هذا الصمت ، لم يكن يسمع الا هدير الحديقة القديمة ، التي أظلمت وبدا أنها مستاءة •

٥

كل هذه الأحاديث والمناقشات ، كل هذا السيل من المشكلات الجديدة ، والآمال ، والانتظارات ، والآراء ، قد هبط على الأعمى هبوطا سريعا مفاجئا • كان أول الأمر يصغي في اعجاب وحماسة ، ولكنه سرعان ما أدرك أن هذه الموجة الحية تتدحرج الى جانبه ولا تمسه •

ما كان أحد يوجه اليه سؤالا ، ولا كان أحد يطلب اليه رأيه ، وكان يشعر أنه بعيد في عزلته ، وكلما زاد القصر انتعاشا واضطرابا ، زاد هو حزنا وكآبة •

ومع ذلك كان يتابع الاصغاء الى هذه الأمور الجديدة عليه كل الجدة ، وكان حاجبه المقطب ، ووجهه المتقع ، يدلان على شدة انتباهه • ولكن هذا الانتباه كان كالحا مغموما ، يخفي وراءه جهدا فكريا ، شاقا ومرا في آن واحد •

Twitter: @ketab_n

وكانت الأم تراقب ابنها ، وقد فاضت نفسها أسى وحسرة ، وكانت عينا ايفلين تعبران عن الشفقة والقلق معا • ولكن مكسيم لم يلاحظ ، فيما يبدو ، ما كان لهذه الجماعة الصافية من تأثير في نفس الأعمى ، فكان يدعو أصدقاءه ، في كثير من اللطف والتودد ، أن يكثروا من المجيء الى القصر كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، واعدا الشباب بأن يهيء لهم ، في المرة القادمة ، مجموعة كبيرة من الوثائق الاتنوغرافية •

ووعد الزوار بالعودة في القريب ، ثم انصرفوا • وعند الوداع ، شد الشباب على يد بطرس في كثير من المودة ، ورد الأعمى على تحيتهم بحماسة عفوية ، وظل يصغي مدة طويلة الى قرقعة عجلات العربة ، ثم استدار فجأة ، ومضى الى الحديقة •

هدأ كل شيء في القصر بعد سفر الضيوف ، الا أن هذا الهدوء بدا للطفل عجيبا غير مألوف • لكأن الهواء نفسه يكشف عن أن شيئا خطيرا جدا قد وقع • كان يخيل الى الأعمى ، وهو يتجول بين ممرات الأشجار التي أصبحت صامتة الا من وشوشات الزان والليلك ، أنه يسمع أصداء الأحاديث التي جرت • وترامت الى سمعه من النافذة المفتوحة أصوات أمه وايفلين والعم مكسيم يتناقشون في الصالون • كانت الضراعة والآلام تجلجل في صوت الأم ، وكان الاستياء يظهر في لهجة ايفلين ، أما العم مكسيم فقد خيل الى الطفل أن في كلامه من الحماسة مثل ما في كلام المرأتين من قوة • فلما اقترب الأعمى انقطعت المناقشة فورا •

هكذا ، بيد قوية لا ترحم ، أحدث العم مكسيم في الجدار الذي يحيط بعالم ابن اخته حتى ذلك الحين ، أول ثلمة • وجاءت الموجة الأولى فاقتحمت هذه الثلمة مدوية عنيفة ، واهتز التوازن النفسي لدى المراهق بهذه الضربة الأولى •

Twitter: @ketab_n

انه يشعر الآن بالاختناق في هذه الدائرة المسحورة • وأصبح يضيق ذرعا بهذا الهدوء المريح الذي يخيم في القصر • وأصبح هدير الحديقة القديمة ، وهمسها ، والاغفاء الرتيب الذي يرنق في فكر الفتى ، أصبح ذلك كله يزعجه يوما بعد يوم • وأخذت ظلماته تحدثه بأصوات جديدة ساحرة ، وتعج بصور جديدة تتراكم وتتزاحم ، مبهمة ولكن آسرة •

كانت هذه الأصوات تناديه ، وتفتنه ، وتوقظ الغرائز الغافية في روحه ••• وتجلت هذه النداءات الأولى شحوبا في وجهه ، وألما أصم غامضا في قلبه •

هذه الأعراض المقلقة لم تخف على المرأتين •

اننا ، نحن المبصرين ، نلاحظ في وجوه الاخرين ما يضطرم في قلوبهم من عواطف ، وقد تعلمنا من ذلك أن نخفي عواطفنا ••• أما العميان فهم من هذه الناحية عزل تماما ، لا يملكون ما يدرأون به افتضاح أمرهم ••• كانت مشاعر الشاب تقرأ في وجهه الشاحب كما تقرأ عواطف أحد الناس في مذكرات يومية نسيها مفتوحة في الصالون ••• كان في وجه الشاب غم أليم وعذاب • وقد لاحظت المرأتان أن العم مكسيم انتبه الى هذا هو أيضا ، ولكنه يدخله في حساب خططه ••• فكانتا تريان أن في ذلك قسوة ما بعدها قسوة ، وكانت الأم تتحرق للدفاع عن ابنها •

« أهو سجن زجاجي كالذي تستنبت فيه النباتات درءا للبرد ؟ ما الضير في ذلك ، ما دام ابنها قد سر في ذلك السجن حتى الآن ؟ فليبق اذن فيه ، ليبق فيه الى الأبد ، بمنجى من الهموم والعواصف ! ••• »

وكانت ايفلين ، بطبيعة الحال ، لا تعلن كل ما في قلبها ، ولكن سلوكها مع العم مكسيم قد تبدل منذ مدة من الوقت ، فأخذت تعترض

Twitter: @ketab_n

اعتراضا مباغتا لا عهد له بمثله منها ، على بعض مشاريعه ، بل على مشاريع ليست بذات بال في بعض الأحيان •

فكان العجوز ينظر اليها من تحت حاجبيه الكثيفين ، ويتفحصها بعينيه المتفرستين ، فتصطدم نظراته بنظرة منها حانقة ملتهبة • فكان يهز رأسه ، ويدمدم ببعض الكلام،ويلف نفسه بسحائب من الدخان أكثف من السحائب المألوفة ، وكان ذلك علامة جهد في التفكير عنيف • ولكنه كان يصر على رأيه ، وكان في بعض الأحيان ، دون أن يوجه كلامه الى أحد بالذات ، يطلق عبارات مستخفة يهجو بها افراط النساء في الحب على غير تبصر ، ويقدح في عقلهن الذي يقول فيه المثل انه أقصر من شعرهن ، فهن لذلك لاينظرن الى ماهو أبعد من ألم اللحظة الحاضرة أو فرح اللحظة الحاضرة • ان العم مكسيم لا يحلم لبطرس بحياة هادئة ، بل بحياة مليئة ، على قدر الامكان • يقال ان كل مرب يحب أن يجعل تلميذه شبيها له • ولقد كان العم مكسيم يحلم للشاب بما شعر هو به ثم فقده في وقت مبكر ، يحلم له بالحياة الفائرة ، بالنضال العنيف ؟ أما صور هذه الحياة وهذا النضال ، فانه لا يعرفها بعد ، ولكنه كان يحاول ، باصرار ، أن يوسع الى أبعد مدى ممكن دائرة التأثيرات الخارجية التي يستطيع الأعمى ان يستقبلها ، ولو تعرض للانفعالات القوية ، بل وللاضطرابات العنيفة • وكان العم مكسيم يشعر أن المرأتين تريدان شيئا آخر يختلف عن هذا كل الاختلاف •

ولكنه كان لا يغضب الا نادرا ، وكان في معظم الأحيان يرد على حجج أخته بملاحظات لطيفة ، وشفقة سمحة • ثم ان آنا ميخائيلوفنا كانت متى خلت الى أخيها تخضع له دائما ، ولكن ذلك لا يمنعها من العودة الى النقاش بعد قليل •

غير أن الأمور كانت تجري مجرى آخر ، وتكتسي طابعا

Twitter: @ketab_n

جديا ، متى حضرت ايفلين ، وكان العم مكسيم يؤثر الصمت في مثل تلك الحالات • كأن نوعا من الصراع قد قام بين الرجل الطيب العجوز وبين الفتاة ، وكأن كلا منهما يكتفي الآن بدراسة خصمه ، ويحرص على اخفاء ما يبيت من أمر •

٦

حين عاد الشباب والعجوز ستافروتشنكو الى القصر بعد خمسة عشر يوما استقبلتهم ايفلين في شيء من التحفظ • ومع ذلك كان يصعب عليها أن تقاوم ما في هذه الحماسة الفتية من فتنة وسحر • كان الشباب يقضون أياما بكاملها ، يطوفون في القرية ، ويصطادون، ويسجلون أغاني الحصادين في الحقول • حتى اذا جاء المساء التام عقد الجميع على درجات الباب في الحديقة •

وفي ذات مساء دار الحديث مرة أخرى ، دون أن تشعر ايفلين بذلك ، على أمور حرجة دقيقة • كيف وقع ذلك ؟ من كان البادىء ؟ لا تعرف هي ذلك ، ولا يعرفه أحد غيرها • لقد وقع دون أن يدرك أحد ذلك ، كانطفاء الشمس التي غربت ، وكهبوط الغسق الذي لف الحديقة ، وكغناء الهزار الذي أخذ يغرد بين أوراق الأشجار •

كان الطالب يتحدث في حماسة وحرارة ، في جموح الشباب الذي يهب الى لقاء المستقبل المجهول ، دون حساب ودون تفكير • وكان في هذا الايمان بالمستقبل المليء بالمعجزات قوة آسرة ، كقوة العادة التي لا تكاد تقاوم •••

واشتعلت حماسة الفتاة ، اذ شعرت أن هذا التحدي موجه اليها ، اليها مباشرة ، اليها وحدها ولو بصورة لا شعورية •

كانت تصغي ، منحنية على تطريزها ••• عيناها تتوقدان ،

Twitter: @ketab_n

وخداهـــــا يحترقان ، وقلبها يخفق ••• ثم انطفأ بريق العينين ، وتقبضت الشفتـان ، وزاد القلب خفاقـانا ، وظهـر على وجههـا الشاحب ذعر •

لئن خافت ، فلأن ما يشبه جدارا كان يحجب عينيها ، قد تهدم الآن ، فاذا آفاق بعيدة تلتمع أمام بصرها ، واذا هي تطل على عالم واسع يغلي بالحركة والنشاط •

نعم ، لقد كان هذا العالم يجتذبها منذ مدة طويلة ، وكانت هي لاتدرك ذلك تماما ، ولكنها كانت كثيرا ما تظل جالسة في ظلال الحديقة القديمة ، على مقعد منعزل ، ساعات طويلة ، مستسلمة لأحلام حافلة بالرؤى والتهاويل •

كان خيالها يريها صورا متألقة ساطعة ، في عالم بعيد ، ليس فيه للأعمى مكان •

واقترب هذا العالم الآن • أصبح لايكتفي باجتذابها ، أصبـح يفرض عليها حقوقا •

وألقت على جهة بطرس نظرة خـاطفة سريعـة ، وانقبض صدرها • كان يجلس ساكنا ، مطرقا واجما •••

وقد تثاقل جسمه ، حتى لكأنه بقعة سوداء •

« انه يفهم ••• كل شيء ! •• » راودتها هذه الفكرة ، خاطفة كالبرق ، فاجتاحت جسمهـــا كله رعشـــة ، وتدفق الدم الى قلبها ، وشعرت بشحوب مفاجيء يغشى وجهها • لقد تخيلت نفسها ، لحظة ، منذ الآن ، هناك ، في ذلك العالم البعيد ، بينما بطرس ، هنا ، وحيد ، خافض الرأس ••• بل هناك ، على الرابية الصغيرة ، عند ضفــــة النهر ، هو الطفل الأعمى ، الذي فجرت من عينيه ، في ذلك المساء ، دموعا غزيرة •

ذعرت ••• شعرت أن أحدا يريد أن يسحب السكين من

Twitter: @ketab_n

جرحها القديم ..

وتذكرت نظرات العم مكسيم الطويلة . اذن هذا ما كانت تريد أن تقوله تلك النظرات ! انه يعرف حالتها النفسية أكثر مما تعرفها هي ... لقد أدرك أن صراعا ما يزال يقوم في قلبها ، أنها ما تزال تستطيع الاختيار ، أنها ليست واثقة من نفسها .. . لا . . لا ... انه مخطيء .. انها لاتترددَ أبدا في أمر الخطوة الأولى التي ستخطوها، وبعد ذلك سترى ماذا تستطيع أن تأخذ أيضا من الحياة .

وزفرت ايفلين زفرة أليمة ، كأنها تسترد أنفاسها بعد عمل منهك ، وطافت ببصرها على ما حولها .

انها لاتعرف هل خيم الصمت منذ مدة طويلة ، هل سكت الطالب عن الكلام منذ مدة طويلة ، هل قال بعد ذلك شيئا ما ... وألقت نظرة على المكان الذي كان يجلس فيه بطرس منذ دقيقة ، ولكن الأعمى كان قد غادر المكان ...

٧

فطوت ايفلين تطريزها ، ونهضت بدورها ، قائلة للضيوف :

ـ معذرة أيها السادة ، انني مضطرة لأن أدعكم وحدكم دقيقة قصيرة .

ثم ابتعدت الى ممر بين الأشجار بعيد .

كانت تلك الأمسية مليئة بالقلق،لا بالنسبة الىايفلين وحدها...

فحين وصلت الفتاة الى المنعطف الذي وضع فيه مقعد طويل ، سمعت أصواتا منفعلة . كان العم مكسيم يكلم أخته ، كان يقول لها بلهجته الخشنة :

ـ بلى ، فكرت فيها كما فكرت فيه . تذكري أنها طفلة

Twitter: @ketab_n

لا تعرف من الحياة شيئا • لا أحب أن أعتقد أنك تريدين استغلال جهالة هذه الطفلة •

واختنق صوت آنا ميخائيلوفنا بالدموع حين أجابت أخاها قائلة:

ـ ولكن اسمع يا مكس ، اذا ••• اذا هي ••• فما يصبح ابننا المسكين ؟

فقال الجندي القديم ، بصوت حازم حزين :

ـ يكون عندئذ ما يكون • وسنرى فيما بعد • المهم هــو أن لا ينوء تحت عبء الشعور بأنه حطم حياة شخص آخر ، وأن لا ننوء نحن أيضا تحت عبء ذلك الشعور •

ثم أضاف الى ذلك قائلا بلهجة أقل خشونة :

ـ فكري في هذا يا آنا •

وتناول يد أخته ، وقبلها في رقة وحنان ، فخفضت آنا رأسها ، وهي تقول :

ـ ابني المسكين ••• صغيري المسكين ••• كان من الأفضل له أن لا يلقاها أبدا •••

وقد سقط هذا الأنين من شفتي الأم ضعيفا جدا ، حتى أن الفتاة حزرته حزرا أكثر مما سمعته سماعا •

فصعد الدم الى وجهها ، وتوقفت فجأة عند منعطف الممر • اذا ظهرت لهما الان فسيدركان أنها سمعت ما يخفيان من أفكار ••• ولكنها سرعان مارفعت رأسها في كبرياء • انها لم تنو أن تتجسس عليهما ، ومهما يكن من أمر ، فلن يوقفهـــا خجل زائف عن المضي في طريقها • ثم ان العجوز يحمل نفسه مالا حاجة به الى حمله ••• انها تعرف كيف تنظم حياتها على النحو الذي تحب •

وخرجت الى المنعطف ، ومرت أمام المتخاطبين ، هادئة رافعة رأسها • فأبعد العم مكسيم عكازته ، بسرعة غير مقصودة ، ليفسح لها مجال

Twitter: @ketab_n

المرور ، بينما كانت آنا ميخائيلوفنا تلقي عليها نظرة منهكة ، تفيض بالحب ، بالعبادة تقريبا ـ وبالخوف •

كأن الأم تحس أن هذه الفتاة الشقراء التي مرت أمامهما في شيء من التحدي والكبرياء ، تحمل بين يديها السعادة أو الشقاء لابنها طوال حياته •

٨

في أقصى ركن من الحديقة تقوم طاحونة قديمة مهجورة ، توقفت عجلاتها عن الدوران منذ مدة طويلة ، والطحلب هنالك قد اجتاح الاشجار ، ومن خلال سدود قديمة كان الماء يتسرب شبكة رقيقة تخر بلا انقطاع • ذلك هو المكان الذي كان يؤثره الأعمى على غيره • كان يجلس هنالك ساعات طويلة ، مستندا الى افريز السد ، مصغيا الى زقزقة الماء التي كان يجيد تقليدها بالبيانو على أكمل وجه • ولكنه يفكر الآن في غير هذا • كان يذهب ويجيء في الممر الضيق بعنف ، وقد فاض قلبه بالمرارة ، وتصعر وجهه من الألم •

وسمع وقع الخطوات الرشيقة ، خطوات الفتاة ، فتوقف • ووضعت ايفلين يدها على كتفه وسألته بلهجة حادة :

ـ قل لي يا بطرس ، ما بك ؟ ما هذا الحزن في وجهك ؟

فأشاح وجهه بسرعة ، وعاد يذهب ويجيء في الممر • فسارت الفتاة الى جانبه •

لقد فهمت حركته المفاجئة هذه ، وفهمت صمته ، فخفضت رأسها لحظة • ووصلت من القصر أغنية :

وراء الجبال
تطير نسور

Twitter: @ketab_n

تطير ، وتصرخ ،

تريد فريســـة

ان صوتا قويا فتيا ، يغني الحب ، والسعادة ، والآفاق الرحيبة ، فتموج نبراته في سكون الليل ، وتطغى على همس الحديقة الأصم ، ويصل الى هذا الركن القصي وقد أضعفته المسافة البعيدة .

هناك ، يجلس شباب سعداء يتحدثون عن حياة مليئة غنية بالاحساسات ... ولقد كانت الفتاة معهم منذ بضع دقائق ، نشوى من تصور مثـل تلك الحياة . ولكن ، في تلك الحياة ، ليس له هو مكان . انهـــا لم تنتبه اليه حين تركهم ، ولا يعلم أحد كم بدت له طويلة تلك الدقائق التي قضاها هنا في وحدة خانقة !

كانت هذه الافكار تحاصر ذهن الفتاة وهي تسير الى جـــانب بطرس طوال الممر بين الأشجار . لم يصعب عليها يوما أن تتحدث الى بطرس وأن تسيطر على مزاجه ، مثلما يصعب عليها هذا الان . ومع ذلك كانت تشعر أن وجودها يبدد افكاره السوداء شيئا فشيئا .

فها هي خطواته تقل سرعة ، وها هو وجهه يزداد هدوءا . كان يسمع وقع خطوات ايفلين الى جانبه ، فهدأ ألمه شيئا فشيئا ، وحلت محل الألم عاطفة أخرى . انه لا يدرك بعد ما هي هـــذه العاطفة ، ولكنه قد ألفها ، فهو يخضع لتأثيرها المنعش راضيا مطمئنا .

وعادت الفتاة تقول :

ـ مابك اذن ؟ قل !

فأجاب بطرس بمرارة :

ـ لا شيء غير عادي ... كل ما هنالك أنني أشعر أن وجودي في هذا العالم أمر زائد ..

وصمتت الأغنية التي كانت تأتي من البيت ، ثم أخذت تترجع

Twitter: @ketab_n

أغنية أخرى بعد دقيقة • ان الأغنية الجديدة لاتكاد تسمع : انالطالب يغني الآن أغنية شعبية قديمة ، يقلد في غنائها العازفين على الباندورا• ان صوته يغيب في بعض اللحظات ، فيسرح الخيال عندئذ في أحلام غائمة ، ثم ما يلبث اللحن العذب أن يختلط مرة أخرى بوشوشات أوراق الأشجار •

توقف بطرس على غير ارادة منه ، وأصاخ بسمعه ، ثم قال بصوت حزين :

ـ هل تعرفين ؟ انني ليخيل الي في بعض اللحظات أن الشيوخ على حق اذ يقولون ان الحياة تزداد قسوة ، يوما بعد يوم • لقد كانت في الزمان القديم سهلة ، حتى على العميان • لو عشت في ذلك الزمان القديم لعزفت على الباندورا بدلا من البيانو ، ولطفت في المدن والقرى ••• فاذا الناس يهرعون الي زرافات زرافات ، ليسمعوني وأنا أغني حياة آبائهم ، ومآثرهم ، وأمجادهم • وعندئذ يكون من الممكن أن أصبح ، أنا أيضا ، شيئا في هذه الحياة • نعم ، حتى ذلك العسكري الصغير ذو الصوت الحاد ، حتى هو ، تتذكرين ماذا قال : يتزوج ثم يصبح قائد فيلق في الجيش ••• لقد ضحكوا منه جميعا ••• ومع ذلك ، حتى هذا ، حتى هذا ليس لي أنا ••

هنا حملقت عينا الفتاة الزرقاوان ذعرا ، والتمعت فيهما دمعة • قالت مضطربة ، وهي تحاول أن تسبغ على صوتها لهجة المزاح :

ـ كل هذا ذنب الشاب ستافروتشكو الذي لا يكف عن الثرثرة•

فقال بطرس حالما :

ـ ربما

ثم أردف يقول :

ـ ان صوته جميل • هل وجهه جميل أيضا ؟

فقالت ايفلين بتلك اللهجة الحالمة نفسها :

Twitter: @ketab_n

ـ نعم انه لطيف •

ولكنها ما لبثت أن استدركت تقول بصـــوت مفاجيء ، يكاد يكون مهتاجا :

ـ لا ، انه لا يعجبني أبدا • انه دعي ، وان صوته مزعج صارخ •

فدهش بطرس لهذه الثورة من الغضب ، وتابعت الفتاة كلامها، وهي تضرب الأرض بقدمها :

ـ وكل هذا ، كل هذا! سخف • أنا أعرف جيدا أن هذه حيل مكسيم ••• آه ، كم أكرهه ، هذا المكسيم •••

فقال الأعمى مشدوها :

ـ ماذا تقولين يا ايفلين ؟ أية حيل تعنين ؟

فكررت تقول في عناد :

ـ أكرهه ، أكرهه • ان هذه الحسابات قد قتلت قلبه • لا تحدثني عنه ، لا تحدثني عنه ، أرجوك • ولماذا يعطي نفسه الحق في التصرف بحياة الآخرين •

وفجأة ، توقفت عن السير ، وعضت أصابعها عضا قويا حتـــى قضقضت ، ثم أجهت تبكي كطفل •

فدهش الأعمى ، وامتلأ قلبه شفقة عليها ، فأمسك بيديها • ان هذه النوبة العصبية لدى صديقته الرصينة دائما شيء لا يتوقع ، ولا يعلل ••• وكان يصغي ، في آن واحد ، الى شهقات ايفلين والى الصدى العميق الذي توقظه في قلبه • وتذكر السنين الخوالي • كانت جالسة على الرابية الصغيرة ، حزينة كحزنها الآن ، وكانت تبكي الى جانبه كما تبكي الآن •

واخيرا سلت ايفلين يديها من يده ، ودهش الأعمى مرة اخرى • انها تضحك •

Twitter: @ketab_n

ـ ألا ما أغباني ! لماذا أبكي ؟

وكفكفت دموعها ، ثم قالت بصوت عذب متأثر :

ـ لا ، يا صغيري ، يجب أن نكون منصفين : انهما كليهما لطيفان ، وما قاله هو منذ لحظة حسن أيضا • ولكنه لا يصدق على جميع الناس •

قال الأعمى :

ـ يصدق على الذين يستطيعون الاستفادة منه •

فأجابت بصوت واضح ، رغم أن فيه شيئا من دموع اللحظة الفائتة :

ـ خذ على ذلك مثلا العم مكسيم • لقد ناضل ما استطاع أن يناضل ، وهو يعيش الآن ، كما يستطيع أن يعيش • ونحن أيضا •

ـ لا تقولي « نحن » • شأنك أنت شأن آخر •

ـ لا •• أبدا •

ـ لماذا ؟

ـ لأنك ••• لأنك ستتزوجني ، أليس كذلك ؟ وعندئذ نعيش كلانا حياة واحدة •

فوقف بطرس ، مصعوقا :

ـ أنا ؟ أتزوجك ؟ اذن أنت تريدين أن تكوني •• زوجتي ؟

فقالت بسرعة ، منفعلة أشد الانفعال :

ـ طبعا ، طبعا ، طبعا أريد • ما أغباك ! أصحيح أنك لم تفكر في هذا ابدا من قبل ؟مع أن هذا بسيط • اذا لم تتزوجني أنا ، فمن تتزوج اذن ؟

فوافق ، يدفعه نوع من أنانية غريبة ، قائلا :

ـ طبعا

ولكنه مالبث أن استدرك فورا ، فقال وهو يمسك بيدي صديقته :

Twitter: @ketab_n

ـ اسمعي يا ايفلين ، لقد سمعناهم يقولون منذ لحظة ان الفتيان في المدن الكبرى يتابعون دراساتهم العليا ••• فأمامك اذن طريق واسعة يمكن أن تنفتح ، أما أنا •••

ـ أنت ماذا ؟

فقال يخلص الى هذه النتيجة بطريقة ليست من المنطق في شيء :

ـ أنا ••• أعمى !

ومرة أخرى تذكر طفولته ، واصطفاق مياه النهر ، ولقاءه الأول مع ايفلين ، والدموع المرة التي ذرفتها البنية الصغيرة ، حين لفظ كلمة « أعمى »

وشعر بغريزته أنه أوجعها الآن كما أوجعها في المرة الأولى ، فسكت • وخيم الصمت بضع لحظات ، فما كان يسمع الا الماء يخرج من السدود في خرير هادىء عذب ، وأصبح لا يسمع لايفلين صوت ، كأنها غابت • لقد تقبضت قسمات الفتاة لحظة ، ولكنها مالبثت أن كظمت انفعالها ، حتى اذا عادت الى الكلام ، كان صوتها يرن في شيء من الدعابة على غير مبالاة :

ـ طيب ! أنت أعمى • ولكن اذا أحبت فتاة أعمى ، فانها تتزوجه هو ••• هذا ما يقع دائما ، ماذا تريد أن أعمل ؟

فكرر يقول ذاهلا ، وقد تقطب حاجباه :

ـ اذا أحبت فتاة ؟

كان كأنه يزن الاصوات الجديدة في الكلمة المألوفة ، وعاد يسأل بانفعال آخذ في الاشتداد :

ـ اذا أحبت ؟

فأجابته تقول :

ـ نعم ؟ ان كلا منا يحب الآخر •• ما أغباك اذن ؟ فكر •••

Twitter: @ketab_n

هل تستطيع أن تبقى هنا ، وحدك ، بدوني ؟

فامتقع وجه بطرس ، وتجمدت عيناه واسعتين ساكنتين •

وظل الصمت مخيما ، وكان الماء وحده يستمر في خريره • لكأن هذا الخرير كان يهدأ أحيانا ثم يتوقف تماما ،ثم ما يلبث أن يرتفع مرة أخرى ويستمر الى غير نهاية • وكانت أوراق الكرز البري الدكناء الكثيفة تهدر • وانقطع الغناء الذي كان ينطلق بالقرب من البيت • ولكن هزارا مختبئا بين الأدغال على شاطيء الغدير أخذ يزقزق •

قال بطرس بصوت أصم :

ـ يميتني ذلك •

فاختلجت شفقا ايفلين كما اختلجتا يوم لقائهما الأول ، وقالت في كثير من الجهد ، بصوت ضعيف طفلي :

ـ أنا أيضا ••• وهل أستطيع أن أعيش بدونك ، وحيدة ، ضائعة في العالم المجهول ، البعيد •••

وشد الأعمى يد ايفلين بيده ، وأدهشه أن هذه المرة التي تشد فيها ايفلين يده شدا ضعيفا لا تشبه المرات الماضية : ان الحركة الناعمة من أصابعها الصغيرة تترجع الآن في أعماق قلبه ترجعا أقوى•وأصبح يرى الآن في صديقة طفولته ايفلين أخرى ، فتاة أخرى تختلف عن تلك التي يعرفها كل الاختلاف • ورأى نفسه قويا ، بينما بدت له هي ضعيفة حزينة • فاهتزت نفسه عندئذ بعاطفة عميقة ، فجذبها باحدى يديه ، وراح يداعب شعرها باليد الأخرى •

وأحس أن كل كرب في روحه قد هدأ ، وأن نفسه خلت من كل رغبة ، وأن لا وجود لشيء غير هذه اللحظة •

وأخذ الهزار الذي كان يجرب صوته ، أخذ يغني ، ماثرا في الحديقة الصامتة أنفاسه الجميلة •

Twitter: @ketab_n

ارتعشت الفتاة ، وسلت يدها من يد الأعمى بحركة خجلى •
فتركها تفعل ما يحلو لها ، وتنفس ملء صدره • وسمعها تصلح ترتيب شعرها • وأخذ قلبه يخفق خفقانا قويا ، ولكنه خفقان منتظم ممتع • وشعر بدمه الحار يبث في جسمه كله قوة جديدة • فلما قالت له ايفلين بعد دقيقة ، بلهجتها العادية : « هيا بنا الآن الى ضيوفنا »، أصغى بدهشة الى هذا الصوت الحبيب الذي ترن فيه أنغام جديدة كل الجدة •

٩

كان أصحاب البيت وضيوفهم جالسين في الصالون الصغير • الا ايفلين وبطرس • وكان العم مكسيم يتحدث مع رفيقه القديم • وكان الشباب صامتين ، بالقرب من النوافذ المفتوحة ، المطلة على الحديقة • وكان يرين على الجمع الصغير كله ذلك الوجوم الذي ينذر بدرامة غامضة ، لا يعرفونها جميعا ، ولكنهم يوجسونها جميعا • وكانوا قد لا حظوا غياب ايفلين وبطرس • وكان العم مكسيم ، وهو يحادث رفيقه ، لا يني يلقي على الباب نظرات قلقة •
وكانت آنا ميخائيلوفنا ، وقد بدا في وجهها الحزن وشيء يكاد يكون شعورا بالاثم ، تبذل جهودا واضحة من أجل أن تكون سيدة لطيفة ترعى ضيوفها وتتودد اليهم • وكان السيد بوبلسكي ، الطيب دائما ، المتدور أكثر من أي وقت مضى ، مسترخيا على كرسيه يغفو قليلا ، بانتظار العشاء •

فلما سمع وقع خطى على السطيحة التي تؤدي الى الصالون التفتت جميع الأعين الى تلك الجهة ، فاذا ايفلين تظهر في الباب ، ووراءها يصعد الأعمى درجات السلم ببطء •

Twitter: @ketab_n

أحست الفتاة بجميع هذه النظرات المتفرسة المنصبة عليها ، ولكنها لم تضطرب ، بل اجتازت الغرفة بخطاها العادية ، المتساوية ، حتى اذا التقت نظراتها بنظرة العم مكسيم السريعة ، ردت عليها بابتسامة خاطفة ، والتمعت عيناها بتحد ساخر • وكانت آنا ميخائيلوفنا تراقب كل حركة من حركات ابنها •

كان الشاب يتبع ايفلين ، وكأنه لا يعرف الى أين تقوده • وتوقف فجأة على عتبة الغرفة المضاءة ، فكان وجهه الشاحب وجسمه المنتصب في فرجة الباب كصورة في اطار • ثم دخل ، واقترب من البيانو اقترابا نشيطا عنيفا ، ومازال تبدو على وجهه علامات الذهول والتفكير في آن واحد •

رغم أن الموسيقى كانت من العناصر العادية في حياة القصر الهادىء ، فقد كانت مع ذلك عنصرا يقتصر على جو الأسرة اقتصارا تاما • ففي الايام التي يمتليء فيها البيت بالصخب والغناء ، كان بطرس لا يقترب أبدا من البيانو،وكان الابن الأكبرمن ابني سترافروتشنكو، وهو موسيقي محترف ، هو الذي يعزف عليه • وكان امتناع الأعمى عن العزف يزيد في امحائه من هذا الحفل الهائج ، وكان يؤلم الأم ، اذ تتابع خطوات ابنها الحزين ، أن تراه يطيش في هذا الجو الصاخب من المرح الشامل • وهذا هو الأعمى يتجه الآن لأول مرة الى مكانه المعتاد ، كأنما على غير شعور منه ، ولكنه يسير بخطى حازمة • لكأنه نسي كل النسيان وجود غرباء في البيت • ثم ان صمتا كاملا قد خيم منذ دخل الى الصالون مع ايفلين ، فلعله ظن اذن أن الغرفة خالية •

ورفع غطاء البيانو ، ولمس أصابعه لمسا يسيرا ، وأخرج الحانا خفيفة سريعة • لكأنه كان يسائل البيانو ، أو يسائل نفسه • ثم وضع يديه على أصابع البيانو ، واستغرق في أفكاره ، وزاد الصمت في الغرفة عمقا •

Twitter: @ketab_n

كان الليل يطل من النوافذ المظلمة المفتوحة . وهذه أغصان خضراء ، مضاءة بنور المصباح ، تتسلل الى الغرفة ، هنا وهناك ، مستطلعة . وكان الحفل ، وقد تهيأ للاستماع بعد هذا الرنين الغامض من البيانو الذي سكت ، وخطفت أبصاره نسمة الالهام الغريب الذي يطوف في وجه الآعمى المتقع ، كان الحفل جالسا في حالة من الانتظار الصامت .

وكان بطرس لا يتحرك،وقد رفع عينيه العمياوين الى السقف، كأنه يصغي الى شيء . كانت احساسات شتى تضطرب في نفسه ، كأمواج تتلاطم . ان تيار حياة جديدة يرفعه الآن ، كما يرفع البحر الهائج مركبا نام على شاطئه هادئا مدة طويلة . كان وجهه يعبر عن الدهشة والتساؤل ، وكان انفعال خاص يتراكض في وجهه ظلالا سريعة . ان العينين العمياوين تبدوان الآن عميقتين مظلمتين .

كان كأنه لا يجد في نفسه ما يصغي اليه في انتباه شديد نهم . ثم ارتعش ، وقد بدت على وجهه علائم تلك الدهشة نفسها وكأنه لا يريد أن ينتظر ما سيأتي ، وأخذ يضرب على أصابع البيانو ، واستسلم لانسجام الألحان استسلاما تاما ، تحدوه العاطفة الجديدة التي ملكت عليه كيانه كله .

١٠

يصعب كثيرا على أعمى أن يستعمل الكتابةالموسيقية. انالكتابة الموسيقية للعميان تمثل النغمات باشاراتخاصة بارزة ،تصطف سطورا كالكلمات في كتاب . ومن أجل الاشارة الى النغمات التي يتألف منها توافق ، توضع نقطة تعجب في الفواصل . وواضح أن الأعمى مضطر أن يحفظها على ظهر القلب ، بالنسبة الى كل يد من اليدين . وهذا

Twitter: @ketab_n

كله يقتضي عملا معقدا جدا ٠

ولكن بطرس كان يساعده حبه لكل عنصر من عناصر هذا العمل ٠ كان بعد أن يستظهر بضع فقرات لكل يد من اليدين على حدة ، يجلس على البيانو ، فاذا تألف من اجتماع هذه الرموز الهيروغليفية البارزة ، توافقات منسجمة ، شعر الأعمى بلذة عظيمة ، وشغف شديد ، حتى لقد انقلب عنده هذا العمل العاق المجهد الى عمل جذاب مغر ٠

على أن عمليات وسيطة كثيرة تقع بين قراءة القطعة مكتوبة على الورق وبين عزفها ٠ فقبل أن يمكن تحويل اشارة من الاشارات الى جزء من اللحن ، يجب أن تمر بالأصابع ، وأن ترسخ في الذاكرة ، وأن تسير بعد ذلك في الطريق المعكوس ، نحو أطراف الأصابع التي تعزف ٠ يجب أن نذكر أيضا أن الخيال الموسيقي النامي لدى الأعمى الى أبعد حدود النمو كان يسهم في هذا العمل المقعد ، عمل الدرس ، ويضفي على القطعة طابعا شخصيا ٠ والصور التي اتخذها الاحساس الموسيقي لدى بطرس هي تلك الصور عينها التي هيأتها له معرفته الأولى باللحن ، وهي أيضا الصور التي اتخذها بعد ذلك عزف أمه ، أعني صور الموسيقى الشعبية التي تترجع دائما في نفسه والتي بها تخاطبه الطبيعة ٠

كان بطرس يعزف الآن قطعة ايطالية ، خافق القلب ، طافح النفس ، وقد كشف عزفه ، منذ النغمات المتوافقة الأولى ، عن روح شخصية جدا بلغت من القوة أن الدهشة ملكت على المستمعين قلوبهم، وما هي الا دقائق حتى استولى الاعجاب عليهم جميعا ٠ وكان الابن الاكبر من ابني ستافروتشنكو ، وهو موسيقي محترف ، يدرس وحده عزف الأعمى درسا طويلا ، محاولا أن يدرك القطعة المعروفة ، وأن يحلل الطريقة الخاصة التي يعمد اليها عازف البيانو في عزفها ٠

Twitter: @ketab_n

كانت الأوتار تهتز وتدوي ، وكانت الاصوات تملأ الصالون كله ، وتطير الى الحديقة الخرساء • وكانت أعين الشباب تلتمع دهشة ومتعة • وكان ستافروتشنكو الأب يصغي صامتا ، خافض الرأس ، ثم ازدادت حماسته شيئا فشيئا ، فلكز العم مكسيم بكوعه ، وهمس يقول له :

ـ هذا ما أسميه عزفا ! عظيم ! ماذا ؟ أتعتقد أنني لست على صواب ؟

وكان العجوز المقاتل ، كلما ازدادت الأصوات اتساعا ، يتذكر شيئا • كان يتذكر شبابه من غير شك ، لأن عينيه سطعتا على حين فجأة ، وتلون وجهه ، وانتصب جسمه كله ، ورفع يده ، وكاد يهوي بقبضته على المنضدة ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، بل خفض قبضته ، دون أن يحدث ضجة • وألقى على ابنيه نظرة مختلسة ، وفتل شاربيه ، ثم انحنى على العم مكسيم يقول له :

ـ يظن هؤلاء الأطفال الأغرار أننا أصبحنا لانصلح لشيء ••• هذا كلام فارغ ! لقد كنا في الماضي ، نحن أيضا ، يا عزيزي ••• والى الآن ما نزال ••• أليس صحيحا ، ما أقول ؟

كان العم مكسيم ، وهو قليل الاحتفال بالموسيقى عادة ، يشعر في هذه المرة بشيء جديد في عزف تلميذه • فكان يلف نفسه بسحب الدخان ، ويصغي هازا رأسه ، منقلا بصره من بطرس الى ايفلين ، ومن ايفلين الى بطرس • مرة أخرى ، تتفجر قوة حيوية عفوية ، وتأتي تتدخل في نظامه التربوي ، على صورة لم يتوقعها أبدا •

وكانت آنا ميخائيلوفنا ، تلقي هي الأخرى على الفتاة نظرات مستفهمة ، وتتساءل : ترى هل السعادة هي التي تخفق الآن في عزف ابنها أم هو الشقاء ؟

وكانت ايفلين جالسة في الظل الذي يسدله غطاء المصباح ، فما

Twitter: @ketab_n

ترى في هذا الظل الا عيناها ، وقد اتسعتا وأظلمتا • انها تفهم وحدها المعنى الحقيقي لهذه الموسيقى التي تسمع فيها خرير الماء المتساقط من السدود القديمة ، وهمهمة أشجار الكرز البري ، في الممر المبلل بأفياء المساء •

١١

كان اللحن قد تبدل منذ مدة طويلة ، فان بطرس قد ترك القطعة الايطالية ، واستسلم لخياله • كان في عزفه كل ما كان يتزاحم في نفسه من ذكريات منذ بضع دقائق ، حين كان جالسا ، خافض الرأس ، يصغي الى تأثرات الماضي • كان في عزفه أصوات الطبيعة ، هزيم الريح ، وهمهمة الغابة ، وهدير النهر ، ووشوشة غامضة تغني في بعيد • وكان ذلك كله يتداخل ويدوي في اطار هذه العاطفة التي لا يمكن أن تحدد ، هذه العاطفة التي تنبسط لها الجوانح ، وتولدها في النفوس لغة الطبيعة السحرية • أهي الحزن؟ فلماذا هي اذن ممتعة ؟ أهي الفرح ؟ فلماذا هي اذن عميقة الحزن ؟

وكانت الأصوات تعمق في بعض اللحظات ، وتزداد قوة ، فيغدو وجه الموسيقي عندئذ جهما صارما • لكأنه كان يدهش هو نفسه من قوة هذه الألحان المرتجلة ، وينتظر شيئا آخر أيضا ••• كان يبدو أنها ستدوي بعد قليل ، تلك الضربات السحرية التي ستضم هذه الألحان كلها في سيل الانسجام الجبار الرائع ، وكان المستمعون يتجمدون في تلك اللحظات منتظرين • ولكن اللحن كان يهبط فجأة ، حتى قبل أن يصل الى الارتفاع المنشود ، يهبط كما تهبط الموجة لتتبعثر زبدا • وبعد الهبوط بمدة طويلة ، تسمع نغمات مرة من خيبة الأمل ومن الشك •

Twitter: @ketab_n

وكان الأعمى ينقطع عن العزف خلال دقيقة ، فيخيم في الصالون صمت عميق ، لا يقطعه الا حفيف أوراق الأشجار في الحديقة • فكان يتبدد الافتتان الذي تملك المستمعين ، وحملهم بعيدا بعيدا الى ما وراء البيت المتواضع، فاذا الغرفة تنغلق عليهم أصغر مما كانت ، واذا الليل ينظر اليهم من النوافذ السوداء ، الى أن يسترد الموسيقي قوته ، ويستأنف عزفه •

ومرة أخرى تزداد الأصوات قوة ، وتصعد ، ثم تصعد وتمعن في الصعود الى أعلى ، كأنها تبحث عن شيء • وتختلط بالألحان مزق من أغان قديمة يترقرق فيها الحب والحزن تارة ، وذكريات الآلام والمجد تارة أخرى ، أو تفيض بحماسة فرحة ، وآمال فتية • هكذا كان الموسيقي الأعمى يحاول أن يعبر عن عواطفه بصور مألوفة •

ولكن الأغنية كانت تنتهي هي أيضا بتلك النغمة الشاكية نفسها التي كانت تهتز في صمت الصالون الصغير ، كأنها سؤال بلا جواب •

١٢

حين انطفأت النغمات الأخيرة نظرت آنا ميخائيلوفنا الى ابنها ، فلاح لها فيه تعبير اعتقدت أنها تعرفه • تذكرت يوما شامسا من أيام الربيع ، كان فيه ابنها مستلقيا عند ضفة الماء ، ترهقه احساسات مفرطة في القوة أثارتها فيه الطبيعة الربيعية •

ولكنها وحدها لاحظت ذلك التعبير • وضج الصالون بهرج ومرج • كان العجوز ستافروتشنكو يهتف للعم مكسيم ببعض الكلام • وكان الشباب في حالة انفعال شديد ، قاموا يصافحون

Twitter: @ketab_n

الموسيقي يتنبأون له بحياة فنية مشرقة زاهية . قال الأخ الأكبر :
- نعم ، نعم ، هذا صحيح . لقد أدركت روح اللحن الشعبي أروع ادراك ، وتمثلته على أكمل صورة ، ولكن هل لك أن تقول لي ما هي تلك المقطوعة التي عزفتها في البداية .
فسمى بطرس القطعة الايطالية . فأجاب الشاب يقول :
- نعم هذه هي ، كنت أخمن ذلك . اني لأعجب أيما اعجاب بطريقتك في العزف ، انها طريقة شخصية تماما . قد يعزفها آخرون خيرا منك ، ولكن ما من أحد عزفها على هـذه الصورة . كيف أقول ؟ انها أشبه بترجمة للقطعة من اللغة الموسيقية الايطاليـة ، الى اللغة الموسيقية الاكرانية . واذا كان يعوزك شيء ، فانما يعوزك أن تدرس الموسيقى في مدرسة جدية ... وعندئذ ...
كان الأعمى يصغي اليه بكثير من الانتباه . لقد أصبح ، لأول مرة ، مدار هذه المناقشات الحامية النشيطة ، ونبت في نفسه الشعور بقوته ، مزهوا . هل يمكن لهـذه الأصوات التي اضنتـه منذ برهة أكثر مما أضنتـه في أي وقت مضى ، أن تؤثر في الآخرين هذا التأثير القوي كله ؟ اذن ... اذن هو قادر عـلى أن يصنع شيئا في هذه الحياة !
كان جالسا على كرسيه ، واضعا يديه عـلى أصابع البيانو ، فاذا هو يشعر فجأة بملامسة حارة تطوف على يديه . لقد اقتربت ايفلين منه ، وشدت يد صديقها دون أن ينتبه أحدالى ذلك، ودمدمت تقول في انتعاش وفرح :
- هل سمعت ؟ أنت أيضا سيكون لك عملك ! ليتك ترى ، ليتك تعرف ، ما يمكنك أن تصنعه بنا جميعا ! ...
فاختلج الأعمى ، وقام واقفا .
لم ينتبه أحد ممن في الصالون الى هذا المشهد القصير ، الا

Twitter: @ketab_n

الأم • فاصطبغ خدها بحمرة قانية ، كأنها هي التي تلقت أول قبلة من أول حب •

وظل الطفل مسمرا في مكانه • كان يحاول أن يسيطر على احساساته بهذه السعادة الجديدة ، ولعله كان يحس مقدما باقتراب العاصفة التي كانت تصعد من أعماق دماغه سحبا ثقيلة شوهاء •

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

١

استيقظ بطرس من نومه في صباح غد مبكرا • كان الصمت يرين في غرفته • ولم تكن جلبة النهار قد بدأت في البيت بعد • وكانت طراوة الصباح تصعد من الحديقة ، وتدخل الى الغرفة من النوافذ التي ظلت مفتوحة طوال الليل • ان بطرس يحس الطبيعة احساسا كاملا رغم عماه • كان يشعر أن الوقت ما يزال باكرا ، وأن النافذة مفتوحة ، لأن حفيف أوراق الأشجار واضح قريب • وكانت احساساته اليوم واضحة وضوحا خاصا : كان يعرف أن الشمس تنظر الى غرفته ، وأنه اذا مد يديه من النافذة هطلت عليها من الشجيرات قطرات من الندى • وكان يشعر أيضا أن كيانه كله يفيض باحساس جديد ، مجهول •

بقي في سريره بضع دقائق ، يصغي الى الزقزقة الحلوة من عصفور صغير في الحديقة ، ويصغي الى هذه العاطفة الغريبة التي تدب في قلبه •

ساءل نفسه : « ماذا حدث ؟ » ، فانبجست في ذاكرته تلك الكلمات التي قالتها ايفلين أمس ، عند الغسق ، بالقرب من الطاحونة:

« أصحيح أنك لم تفكر في هذا ابدا من قبل ؟ ما أغباك ! »

لا ، انه لم يفكر في هذا ابدا من قبل • لقد كان وجود ايفلين متعة كبيرة له ، ولكنه لم يدرك ذلك حتى مساء أمس ، كما تتنسم

Twitter: @ketab_n

الهواء دون أن نشعر به • لقد سقطت هذه الكلمات على نفسه ، كما يسقط حجر من شاهق على صفحة الماء • كان الماء ساكنا يعكس أنوار الشمس وزرقة السماء في هدوء ، فاذا بحجر يسقط على صفحة الماء فيضطرب حتى الأعماق •

لقد استيقظ اليوم بنفس جديدة ، وها هو ذا يرى صديقة طفولته منذ الآن في ضوء جديد • انه يتذكر أيسر التفاصيل مما وقع بالأمس ، فكان يصغي في كثير من الدهشة الى نبرة صوتها « الجديد » الذي يتذكره : « واذا أحبت فتاة » ••••« ماأغباك ! »•

ووثب من سريره ، وارتدى ملابسه بسرعة ، وسعى بين الممرات المبللة بالندى يتجه الى الطاحونة القديمة • الماء يدمدم كما كان يدمدم بالأمس ، وأغصان الكرز البري توشوش كما كانت توشوش بالأمس • ولكن الظلام كان مخيما أمس ، في حين أن شمس الصباح الرائعة تسطع اليوم • انه لم يحس بالضوء يوما ، احساسا بلغ من الوضوح ما يبلغه اليوم • كان يخيل اليه أن أشعة النهار المرحة تنفذ في كيانه كله مع الرطوبة المعطرة والطراوة اللذيذة من هذا الصباح ، تنفذ فيه وتدغدغ أعصابه •



لكأن القصر كله غدا أكثر اشراقا وأشد فرحا • لكأن آنا ميخائيلوفنا عاد اليها شبابها • وازداد مزاح العم مكسيم ، رغم أن دمدمته الشبيهة بالهدير البعيد من عاصفة عابرة ، ما يزال يسمع من حين الى حين ، وسط سحائب الدخان• كان يقول: ان بعض الناس

Twitter: @ketab_n

ينظر الى الحياة نظرته الى رواية تافهة تنتهي بزواج • ألا ان في الحياة أشياء يجب أن لاينساها بعض الناس •

وكان السيد بوبلسكي الذي غدا رجلا مهيبا متدورا ، ذا شعر أشهب جميل ، ووجه ملون مشرق ، يوافق العم مكسيم دائما على آرائه ، ويتبنى عباراته بل ينتحلها لنفسه ، ثم يمضي فورا الى اعماله التي كانت تسير على أحسن وجه • وكان الفتى والفتاة يبتسمان خفية ، ويرسمان الخطط • كان على بطرس أن يكمل ثقافته الموسيقية اكمالا جديا •

بعد الحصاد ، في ذات يوم جميل من أيام الخريف الواني ، حيث تتموج في الهواء على هون خيوط من الذهب لا نهاية لها ، مضت أسرة بوبلسكي تزور أسرة ستافروتشنكو في أرضها التي تبعد عن قصر أسرة بوبلسكي مسافة ٧٠ فرسخا على وجه التقريب • ان منظر هذه المقاطعة مختلف كل الاختلاف : ان الهضاب الاخيرة من جبال الكاربات ، التي ترى في فولينيا وفي المناطق التي يرويها نهر بوغ ، تزول هنا وتحل محلها السهوب الأكرانية • وفي السهول التي تخددها الوديان هنا وهناك ، تقوم قرى لا حصر لها ، غائبة بين الحدائق والبساتين • وفي آخر الأفق تنتصب أحجار قبور عالية، دارسة منذ زمان طويل ، تحيط بها حقول صفراء •

ان أسرة بوبلسكي لم تتعود كثيرا على هذا النوع من السفر الطويل بعض الطول • وكان بطرس ، اذا خرج من قريته ومن الحقول المجاورة التي يعرفها طولا وعرضا ، يتعثر ، فيشعر بآفته شعورا أقوى ، ويصبح قلقا مهتاجا • ومع ذلك قبل هذه المرة دعوة أسرة ستافروتشنكو على رضى وارتياح • ذلك أنه بعد تلك السهرة التي لاينساها ، تلك السهرة التي أطلعته على كل ما في موهبته

Twitter: @ketab_n

من قوة نامية ، أصبح يشعر بمزيد من الثقة أمام ذلك المجهول المظلم الغامض ، أعني العالم الخارجي ، بل ان هذه الدنيا البعيدة قد أخذت تجتذبه وتحتل في خياله مكاناماينفك يتسع •

انقضت عدة أيام ، في حركة ونشاط • لقد أصبح بطرس أقل تحرجا وأكثر ارتياحا بين الشباب مما كان • وكان يصغي بانتباه نهم الى العزف الفقيه الذي يعزفه الشاب ستافروتشنكو والى ما يقصه عن الكونسر فاتوار وعن الحفلات الموسيقية التي تقام بالعاصمة • وكان وجهه يتلون كلما أخذ صاحب البيت الشاب يطري في كثـــير من الحماسة رهافة الحس الموسيقي لدى الأعمى ، قائلا انه حس قوي ، رغم أنه لم يثقف حتى الآن الا قليلا • أصبح الأعمى الآن لاينزوي في الأركان القصية ، بل يشارك في الأحاديث العامة مشاركة الند ، بكثير من اللباقة والكياســـة • كما أن التحفظ والاحتراس المفرط اللذين كانا يظهران في ايفلين قد زالا أيضا • كانت مرحة ، وكانت تشعر بكثير من الارتياح ، وكانت تفتن الجميع بانفجارات الفرح التي تندفع فيها على غير توقع •

وكان يوجد ، على مسافة عشر كيلو مترات تقريبا ، دير قديم ، شهير في تاريخ البلاد ، قد لعب في هذا التاريخ دورا خطيرا ، فلقد هاجمته قبائل التتر غير مرة ، كأسراب الجراد ، وحاصرته ورمتــه بألوف السهام ، من فوق شرفاته ، كماأن قطعات مبرقشة منالبولونيين كانت تتسلق جدرانه في بعض الأحيان ، وكما أن القوزاقيين الذين كانوا يهجمون ليطردوا منه محاربي ملك بولونيا كانوا يستولون عليه من حين الى حين • لقد تهدمت الآن أبراجه القديمة ، وحلت أسيجة بسيطة محل جدرانه في كثير من المواضع ، لا لشيء الا لحمـــــاية الخضروات المزروعة في الدير من غزو مواشي الموجيك الجريئة ، ونبتت الذرة البيضاء في قاع الخنادق الواسعة التي تحيط به •

Twitter: @ketab_n

في ذات يوم جميل ناعم من أيام الخريف ، ذهب أصحاب البيت وضيوفهم الى هذا الدير يزورونه • ركب العم مكسيم والنساء عربة كبيرة من عربات الطراز القديم التي تتمايل كتمايل العجلة ذات الدولابين فوق نوابضها العالية • أما الشباب ، وبينهم بطرس ، فقد ركبوا خيولا •

كان الأعمى يمتطي صهوة الفرس بكثير من السهولة ، وقد اعتاد منذ طفولته على أن يصغي الى وقع حوافر الخيول الأخرى والى قرقعة العربة التي تسبقه • فلو رأى أحد هذه الثقة في جلسته على ظهر الحصان ، لما دار في خلده ابدا أن الفارس لايرى الطريق أمامه ، وأنه يعتمد على غريزة حصانه وحدها • كانت آناميخائيلوفنا ، في أول الأمر ، تلتفت اليه على خجل ، خائفة من الحصان الجديد والطرق المجهولة ، أما العم مكسيم فكان لاينظر اليه الا من حين الى حين ، معتزا اعتزاز الاستاذ بتلميذه ، ساخرا سخر الرجل بمخاوف امرأة •

واقترب الطالب من العربة ، وقال :

ـ اسمعوا ! لقد تذكرت الآن قبرا هاما جدا ، اكتشفنا تاريخه في أضابير الدير • فاذا شئتم ذهبنا اليه • ليس بعيدا عن هنا ، انه في آخر القرية •

فقالت ايفلين في مرح :

ـ لماذا توقظ في جمعنا ذكريات حزينة ؟

فقال الشاب :

ـ على هذا السؤال سأجيبك فيما بعد •

ثم دل الحوذي على الطريق الذي يجب أن يسير فيه •

ولفت حصانه ، ولحق بركب رفاقه •

وبعد دقيقة واحدة ، بينما كانت العربة ترج وتغوص عجلاتها

Twitter: @ketab_n

في الغبار الرخو ، وهي سائرة في طريق ضيقة متلملعة ، تقدمها الشباب بسرعة ، ونزلوا عن خيولهم بعد قليل ، وربطوها الى سياج ، وأسرع الاخوان ستافروتشنكو يستقبلان العربة ، ليساعدا السيدات على النزول • وبقي بطرس في مكانه ، مستندا الى سرج حصانه ، يصغي ، خافض الرأس ، على عادته ، كي يستطيع التوجه في هذا المكان المجهول ، على قدر الامكان •

لم يكن هذا النهار الشامس الا ليلا دامسا بالنسبة اليه ، ليلا يعج بصخب النهار • كان يسمع قرقعة العربة وهي تقترب ، ويسمع الشابين يتمازحان في مرح ، وهما يسرعان الى لقاء المركبة الانيقة • والى جانب بطرس كانت شكائم الفولاذ في أعنة الخيول تصل ، والخيول تمد أعناقها فوق السياج لتصل برءوسها الى العشب العالي في البستان • ومن مكان قريب ، لاشك أنه البستان ، تترامى الى مسامع الأعمى أصوات غناء حزين خافت ، كأنه يتماوج على أجنحة النسيم واهنا وانيا • وأوراق أشجار توشوش ، ولقلق يصرخ بصوت أجش ، وديك يصيح وهو يصفق بجناحيه كأنه تذكر شيئا ، وبكرة بئر تصر ••• هذه الأصوات كلها كانت تدل الأعمى على أن حياة نشيطة تدب في قرية قريبة •

والحق أن الركب قد توقف بالقرب من سياج في طرف القرية• وبين أبعد الأصوات كان يسمع صوت ناقوس الدير يرن على ايقاع ، بجرس عال وقرع متواتر • وأحس بطرس أن في مكان ما ، هناك ، وراء الدير ، تنخفض الأرض فجأة نحو نهر • لا يدري من أين جاءه هذا الاحساس ، أجاءه من صوت الناقوس ، أم من أنين الريح على نحو خاص ، أم من علامة أخرى غامضة ، وأحس أن وراء النهر سهلا يمتد على مدى البصر ، تضطرب فيه ضجات غامضة ، لا تكاد تدرك ، هي أصوات مدينة هادئة • كانت هذه الضجات تصل

Twitter: @ketab_n

اليه قليلة ، ضعيفة ، وتهيء له الاحســـاس السمعي بالفضاء المليء باصوات محجوبة غامضة ، كالحواشي البعيدة في ضباب الغسق ٠

وكانت الريح تحرك خصلة الشعر التي أفلتت من تحت قبعته، وتصفر عند أذنيه كغناء متصل من معزف ايولي ٠ وهـــذه ذكريات غامضة تطوف في نفسه ، لحظات من طفولته ينتزعها خياله من الماضي الغارق في الزمان ، ويثيرها نسمات ، وهمهمات ، وأصواتا ٠٠٠ كان يبدو له أن هذه الريح الممتزجة بالأصوات البعيدة ، أصوات النواقيس وبقايا الغناء ، تقص عليه أسطورة حزينة عن ماضي هذه البلاد ، أو عن ماضيه هو ، أو ربما عن مستقبله أيضا ، مستقبله المظلم القلق ٠

ووصلت العربة بعد دقيقة ، فنزل ركابها منهـــا ، ودخلوا الى الحديقة من ثلمة في السياج ٠ كانت ترقد هناك ، في ركن مهجـــور ، بلاطة كبيرة من الحجر ، غاصت كلها تقريبا في التراب ٠ وكانت أوراق الأرقطيون العريضة وأزهارها ذات اللون الوردي الصارح ، والنقوش على ساقها الناعمة ، تتأرجح في الهواء وسط الأعشـــاب ، وكان بطرس يدرك همهمتها الغـامضة فوق القبر المختبئ تحت النباتات الكثيفة ٠

قال ستافروتشنكو الشاب :

ــ اننا لم نعلم بوجود هذا الأثر الا منذ مدة قريبة ، وهـــل تعرفون ، مع ذلك ، من يرقد هنا ؟ انه الفارس الشهير ، المحارب العجوز انيات كاري ٠

قال العم مكسيم بلهجة ذاهلة :

ــ ها ٠٠٠ اذن هنا وجدت الراحة أيها اللص العجوز ٠ ولكن كيف فعل حتى سقط هنا ؟

ــ في عام الف وسبعمائة و٠٠٠ كان القوزاق والتتر يحاصرون هذا الدير الذي كان يحتله البولونيون ٠ وأنتم تعرفون أن التتر

Twitter: @ketab_n

كانوا دائما حلفاء خطرين جدا • وأغلب الظن أن المحاصرين قد ظفروا بافساد قائد من التتر ، فاذا التتر والبولونيون يهاجمون القوزاق في ذات ليلة معا • وهنا ، في هذا المكان نفسه ، في كولودنيا ، وقعت في الظلام مذبحة رهيبة • وقد غلب التتر يومئذ ، اذا لم يخطيء الظن ، واستولى القوزاق على الدير ، الا أنهم فقدوا قائدهم ابان المعركة •

ثم استطرد الشاب يقول ، وماتزال علائم التفكير بادية في وجهه :

ـ هناك شخصية أخرى في تاريخ هذه الحادثة ، ولكننا لم نعثر على بلاطة أخرى • تقول الحوليات التي وجدناها في الدير انه دفن الى جانب القائد كاري شاب عازف على الباندورا ••• أعمى ، كان يرافق القائد في جميع حملاته •

هنا صاحت آنا ميخائيلوفنا مذعورة،وهي تتصور ابنها في معمعان معركة رهيبة في الليل :

ـ أعمى ••• يشترك في الحملات ؟

ـ نعم ، أعمى • وطبعا كان مغنيا شهيرا في زايوروجي كلها ، أو ان افتراضي هذا هو ما تؤيده الحوليات التي أشرت اليها •انتظروا• أظن أنني أحفظ على ظهر القلب الصفحة التي تروي موت الأعمى « وفي الوقت نفسه هلك يوركو ، الشاعر القوزاقي الشهير ، الذي كان لايترك كاري أبدا ، وكان كاري يحبه حبا عميقا • فبعد أن قتل الوثنيون القساة كاري ، ضربوا يوركو بالسيف على صورة دنيئة بطريقتهم المخزية ، لم يراعوا آفته ولا احترموا موهبته العظيمة في تأليف القصائد والعزف عى الباندورا • رغم أن عزفه كان يرقق قلوب الذئاب في السهوب ، فان الوثنيين لم يعفوه من الموت اثناء هجومهم الذي قاموا به تحت جنح الليل • هنا ، جنبا الى جنب ، يرقد المغني والفارس اللذان سقطا في ساحة القتال بسالة ، فليهب لهما الله مجدا خالدا ، آمين • »

Twitter: @ketab_n

قال أحدهم :

ـ ان الحجر كبير ، فلعلهما يرقدان كلاهما هنا •

ـ ربما ، ولكن الكتابة المنقوشة على الحجر قد محاها الطحلب• انظروا ، اننا لانزال نستطيع أن نرى أسلحة القائد وعصاه ، ولكن كل ما عدا ذلك قد أكله حزار الصخر •

كان بطرس يصغي الى القصة في انفعال متزايد ، فصاح فجأة يقول :

ـ انتظروا

واقترب من القبر ،فانحنى عليه ، وغاصت أصابعه في الأشنة الخضراء التي تغطي الحجر ، وأخذ يتلمس من خلال الطبقة الكثيفة، النتوءات البارزة في الحجر • وظل على ذلك مدة طويلة ، رافعا رأسه مقطبا حاجبيه ، ثم أخذ يقرأ :

« انيات ، الملقب كاري ••• في سنة ••• صرعه سهم ••• من قوس تترى ••• »

قال الطالب :

ـ هذا نحن أيضا استطعنا أن نقرأه •

وهبطت أصابع الأعمى الى ما تحت ذلك ، وقد انعقفت وتوترت الى أقصى حد •

ـ ••• « فبعد أن قتل ••• »

فقال الطالب بحماسة :

« الوثنيون القساة كاري ••• » • هذه هي الكلمات عينها التي وجدناها في وصف مقتل يوركو • اذن فهو يرقد هنا هو الاخر،تحت هذا الحجر •

وتابع بطرس قراءته :

ـ نعم ••• « الوثنيون القساة كاري ••• » ، البقية اختفت ،

Twitter: @ketab_n

لا ، لا ، انتظروا ••• « ذبح بسيوف التتر ••• » أظن أن هناك كلمة أخرى ••• لا ، لم يبق شيء •

لقد اندرس اسم عازف الباندورا على البلاطة الكبيرة التي تبلغ من العمر مائة وخمسين عاما •

وخيم صمت عميق ، خـــلال بضع لحظـــات ، صمت لا يشوشه الا حفيف أوراق الشجر ••• ثم اذا بزفرة طويلة تفيض بالاحترام تقطع الصمت • انه اوستاي ـ صاحب البستان ، وبالتالي صاحب المسكن الأخير الذي يرقد فيه القائد التتري ـ لقد اقترب من الزوار ، وكان يراقب في دهشة كبيرة ذلك الشاب ذا العينين الجامدتين المرفوعتين الى السماء ، الذي يقرأ بأصابعه كلمات محتها الامطـــار والرياح ، وخبأتها العصور عن أعين المبصرين •

قال ، وهو يتفرس في بطرس بتقدير وتعظيم :

ـ هو الله ••• ليس الاه ••• يفتح على الأعمى بما لم تستطع أعين المبصرين أن تراه •

وحين عادت العربة تسير في الطريق الغبراء نحو الدير ، قال الطالب للفتاة يسألها :

ـ هل فهمت الآن ، يا آنستي ، لماذا تذكرت يوركو ، العازف على الباندورا ؟ لقد استغربنا أنا وأخي ، كيف استطاع أعمى أن يرافق كاري وفرقه المتنقلة • لقد كان معظم العازفين على الباندورا شيوخا متسولين ، يحملون خرجهم على ظهورهم،ويتنقلون من قرية الى قرية ، يغنون • واليوم حين رأيت صديقنا بطرس على صهوة الحصان ، انبثقت في خيالي صورة يوركو الأعمى ، يحمل الباندورا بدلا من البندقية ، ويسير على حصانه وراء قائده •

ثم أردف يقول حالما :

ـ ومن الممكن جدا أن يكون قد أسهم في المعارك • ومهما يكن

Twitter: @ketab_n

من أمر ، فقد اشترك في الغزوات ، وشارك رفاقه ما تعرضوا لــه من أخطار • يا لذلك العهد المظفر الذي عاشته بلادنا أكرايـــا ، ما كان أمجده من عهد !

وتنهدت آنا ميخائيلوفنا ، تقول :

ـ ما أفظع ذلك !

ـ ما كان أجمله !

بذلك أجاب الشاب مقاطعا •

وقال بطرس بلهجة جازمة ، وقد اقترب من العربة هو أيضا :

ـ لم يبق شيء من ذلك ، في أيامنا هذه •

لقد رفع الأعمى حاجبيه ، وأصغى بسمعه الى خطوات أحصنة العربة ، وأجبر حصانه على محاذاة العربة في سيرها • وكان وجهه ، الذي ازداد شحوبا ، يعبر عن انفعال عميق • وكرر يقول :

ـ كل ذلك قد زال الآن •

فقال العم مكسيم بلهجة غريبة البرودة :

ـ زال ما كان لابد أن يزول • لقد عاشوا على طريقتهـــم ، وعليكم أنتم أن تجدوا طريقتكم •

فأجاب الطالب يقول :

ـ لك أن تقول ما تشاء ، المهم أنك أخذت من الحياة كل ما كانت تستطيع أن تعطيك •••

ـ والحياة ، قد أخذت مني أيضا ما استطاعت أن تأخذه •

قال العجوز الغاريبـالدي ذلك ، وهو يبتسم ابتسامة مــرة ، وينظر الى عكازيه •

ثم أضاف :

ـ أنا أيضا قد تحرقت شوقا الى الحريات القوزاقية ، والى

Twitter: @ketab_n

الشعر الجميل في تلك الحياة الصاخبة ... حتى لقد ذهبت الى تركيا للقاء صادق (١)

فهتف الشباب في حماسة يسألونه :

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم ... شفيت منذ رأيت « القوزاقيين الاحرار » يخدمون الاستبداد التركي ... مهزلة تاريخية ، وتدجيل ! فهمت أن التاريخ قد رمى كل هذه الأفكار البالية ، وأن الشيء الأساسي ليس هو الأشكال الجميلة ، بل الغايات ... وعندئذ سافرت الى ايطاليا . وبدون أن أعرف حتى لغة الايطاليين ، كنت مستعدا لأن أموت في سبيل مثلهم الأعلى .

كان العم مكسيم يتكلم بلهجة جادة ، واخلاص مفحم . كان من عادته أن لا يشارك في المناقشات التي تدور بين ستافروتشنكو الأب وبين ابنيه ، وكان يكتفي اذا استنجد به الشابان اللذان يعدانه حليفا لهما ، كان يكتفي بابتسامة طيبة حليمة . أما الآن ، وقدهزته ذكريات هذه الدرامة ، التي استيقظت في خياله على حين فجأة أمام الصخرة القديمة المغطاة بالأشنة ، فقد كان يشعر أن هذه الفترات من الأزمنة الماضية هي ، بسبب بطرس ، ذات صلة غريبة بحاضر حي .

وفي هذه المرة لم يثر الشباب أي اعتراض ، لا ندري هل كان ذلك لتأثرهم بالانفعالات التي اضطرمت في نفوسهم في بستان أوسناب ـ لقد كانت بلاطة القبر تشهد بموت الماضي شهادة بليغة ـ أم كان انصياعا للصدق المقنع في كلام المقاتل القديم .

وقال الطالب بعد فترة من صمت :

ـ اذن فماذا بقي لنا نحن ؟

---

(١) هو تشايكوفسكي ، خيالي أكراني عرف باسم صادق باشا ، كان يحلم بتنظيم القوازق فيقوة سياسية مستقلة عن تركيا

Twitter: @ketab_n

ـ بقي لكم النضال الابدي نفسه •

ـ ولكن أين ؟ وفي أية صورة ؟

فأجاب العم مكسيم الموجز ، بقوله :

ـ ابحثوا •

منذ اللحظة التي ترك فيها لهجته العادية ، الساخرة قليلا ، كان مستعدا للكلام بجد • ولكن لم يبق له الآن متسع من الوقت ••• لقد وقفت العربة أمام باب الدير ، فانحنى الطالب انحناءة خفيفة ، وأمسك بلجام حصان بطرس ، الذي كان وجهه يعكس انفعالا عميقا ، ككتاب مفتوح •



في الدير ، يزور الناس عادة الكنيسة القديمة ، ويصعدون الى برج الأجراس الذي يطلون منه على منظر واسع ، فاذا كان الجو رائقا ، حاولوا أن يروا المدينة وقد لاحت بقعا بيضاء صغيرة ، وأن يروا عند الأفق شريطا متعرجا هو نهر الدنيبر •

حين اقتربت الجماعة من باب برج الأجراس ، المغلق ، كانت الشمس قد بدأت تغرب • فجلس العم مكسيم على درجات باب احدى الحجرات • كان هنالك راهب مساعد يرتدي جبة ويكسو رأسه بقلنسوة مقرنة ، قد وقف تحت القبة مسندا يده الى قفل الباب المغلق ، وكان بالقرب منه جمهور من الأطفال يتزاحمون كسرب من العصافير المذعورة • كان واضحا أن حادثا مزعجا قد وقع بين الراهب المساعد وبين هؤلاء الأطفال • اذ يظهر من وضعه الذي يدل على شيء من الاستعداد للقتال ، ومن طريقة تمسكه بقفل الباب ، أن الأطفال كانوا يريدون الصعود الى برج الأجراس وراء الزوار ،

Twitter: @ketab_n

ولكن الراهب الشاب يعترض على ذلك ويمنعهم منه • كان وجهه شاحبا حانقا ، وكانت وجنتاه وحدهما حمراوين بلون العقيق •

كانت حدقتا المترقب الشاب جامدتين جمودا غريبا • ولقد كانت آنا ميخائيلوفنا أول من لاحظت تعبير هذا الوجه وهاتين العينين ، فأمسكت يد ايفلين بحركة عصبية •

دمدمت الفتاة مذعورة قليلا ، بقولها :

ـ أعمى !

فأجابت الأم :

ـ اسكتي ! وهو أيضا ••• هل لاحظت ؟

ـ نعم •

كان من الصعب أن لا يلاحظ المرء ذلك الشبه الواضح بين الراهب الشاب وبين بطرس : الشحوب العصبي ،الحدقتان الصافيتان، الجامدتان ، الحركة القلقة في الحاجبين يتقوسان عند كل ضجة جديدة ويتحركان فوق العينين كقرني حشرة مذعورة •

كانت قسمات وجهه أغلظ ، وكان جسمه أكثر تكسرا ، ولكن الشبه بينه وبين بطرس بارز كل البروز • ولما سعل سعلة جافة ، واضعا يده على صدره الغائر ، نظرت اليه آنا ميخائيلوفنا ، بعينين محملقتين ، كأن طيفا قد ظهر لها على حين غرة •

فلما انتهى من سعاله ، فتح الباب ، ووقف أمامه يسأل بصوت مصدوع :

ـ هل يوجد أولاد ؟ اذهبوا أيها المناحيس !

قال ذلك واندفع نحوهم بجسمه كله ، ثم أدخل الزوار ، وقال بلهجة شاطرة تنبيء عن طمع •

ـ هل تريدون أن تعطوا دقاق الناقوس شيئا ؟ انتبهوا ، هنا ظلام •

Twitter: @ketab_n

وأخذوا يتسلقون درجات السلم • كانت آنا ميخائيلوفنا ،منذ لحظة ، تتردد في الصعود ، لأن السلم شديد الانحدار متعب ،ولكنها تبعت رفاقها طائعة •

وأغلق الدقاق الباب ، فساد الظلام • ولكن بعد بضع لحظات، بينما كان الشباب يصعدون السلم ويصطدمون بجدرانه الحلزونية، لاح لآنا ميخائيلوفنا التي كانت متأخرة عن الركب ، بصيص غامض من نور ، يتسلل من كوة صغيرة في الجدار السميك ، ساقطا على الأحجار الغبراء المختلفة الحجوم •

وكان الاطفال في الخارج يصيحون صياحا متواترا :

ـ هيه ، ياعم ، يادقاق ، دعنا ندخل ، دعنا ندخل يادقاق •

فهرع الدقاق نحو الباب غاضبا ، وأخذ يطرق مصراعيه المصفحين بالحديد ، صارخا بصوت أبح يخنقه الغيظ :

ـ اذهبوا ، اذهبوا ، أيها الأولاد الملاعين ! صاعقة تأخذكم!••

فأجابته اصواتهم جوقة واحدة تقول :

ـ ياقرد ، يا أعمى !

وأخذت عشرة من الأقدام الحافية تضرب الأرض وراء الباب•

فأصاخ بسمعه ، واسترد أنفاسه •

ـ طاعون يشيلكم ، أيها المناحيس ! موت يأخذكم •

ثم هتف يقول بصوت مختلف كل الاختلاف ، بصوت نسمع فيه آلام انسان شقي أعمق الشقاء :

ـ آه يارب ، آه يارب ، لماذا تركتني يارب ؟

وهم بالصعود ، فاصطدم بآنا ميخائيلوفنا التي كانت ما تزال متجمدة في أسفل السلم ، فقال في غلظة :

ـ من هنا •

ـ لكن •••

Twitter: @ketab_n

ـ ها ••• معذرة ! اصعدي ، اصعدي ، لاتخافي •
أضاف ذلك بشيء من الأدب • ثم قال :
ـ اسمعي ••• اتكئي علي •
وعاد يسأل مرة أخرى بصوت متملق مزعج :
ـ هل تريدين أنت أن تعطي الدقاق شيئا ؟
فأخرجت آنا ميخائيلوفنا من محفظتها ورقة نقدية ومدتها الى الأعمى في الظلام • فتناول الورقة بيد سريعة ، وفي النور الباهت الذي كان يسقط عليه عند منعطف السلم ، رأته آنا ميخائيلوفنا ، يرفع الورقة الى خده ، ويجسها بأصابعه ، فاذا بوجهه الشاحب الذي يشبه وجه بطرس كثيرا يشرق اشراقا عجيبا ، ويتشنج فجأة بفرح ساذج نهم :
ـ شكرا ••• أشكرك كثيرا ••• ليست مزيفة ، ورقتك • ظننت أنك تضحكين علي • هل تعرفين ؟ ان كثيرا من الناس يحبون أن يسخروا من الأعمى البائس •••
كان وجه الأم المسكينة مبللا بالدموع ، فجففته بسرعة ، وتابعت سيرها تصعد السلم • وكانت تسمع من أعلى ، خطوات الذين سبقوها وأصواتهم المبهمة ، تصل اليها صماء ، كسقوط ماء وراء جدار •
وتوقف الشباب عند أحد المنعطفات • كانوا قد صعدوا مسافة كبيرة • ومن نافذة ضيقة ، كان يدخل هواء نقي ، وخيط من النور صاف وان يكن مبعثرا • كان الحائط الأملس في هذا المكان مخددا بالكتابة • ان معظم هذه الكتابة تواقيع الزوار •
وأخذ الشباب يبحثون عن أسماء أصدقائهم وهم يتبادلون الأمازيح •
وهتف الطالب :

Twitter: @ketab_n

ـ وهذه عبارات !

وقرأ في شيء من الجهد :

ـ « كثيرون أولئك الذين يبدأون ، وقليلون أولئك الذين يصلون الى النهاية ... »

ثم أضاف معلقا بلهجة مازحة :

ـ يقصد صعود هذا السلم طبعا .

فأجاب دقاق الناقوس بفظاظة ، وقد التفت نحوه وأخذ حاجباه يتحركان تحركا عصبيا :

ـ لك أن تفهم الجملة كما تشاء . في أسفل ، يوجد أشعار . هذا ما ينبغي أن تقرأه ...

ـ أين ؟ اني لا أرى شعرا .

ـ أنت تقول لايوجد أشعار ، وأنا أقول يوجد أشعار .... هناك أشياء كثيرة تخفى عليكم أنتم المبصرين .

وهبط درجتين ، وبعد أن تلمس الجدار ، في الظلام الذي أخذت تفنى فيه أواخر أشعة النهار قال :

ـ هذه هي . انها أشعار جميلة . ولكنكم لا تستطيعون أن تقرأوها بلا مصباح .

ولحق به بطرس ، ومر بيده على الحائط ، فعثر بسهولة على العبارة الصارمة التي نقشها انسان لعله مات منذ اكثر من مائة عام :

فكر في ساعة الموت ،
حين تنفصل النفس عن الجسد .
فكر في يوم الحساب
فكر في عذاب الجحيم !

قال الطالب محاولا أن يمزح :

ـ كلام !

Twitter: @ketab_n

ولكن مزاحه أخفق ، اذ رد عليه دقاق الناقوس ، ساخرا :

ـ هذه الأشعار لم تعجبك ، هه ؟ انك مازلت شابا بعد ••• ولكن من يدري ••• مع ذلك ؟ ان الموت يأتي كما يأتي لص في الظلام •

ثم قال بصوت مختلف :

ـ انه لشعر جميل مع ذلك : « فكر في ساعة الموت ••• »

وأضاف يقول في خبث وشر :

ـ هل نعرف ماذا ينتظرنا في الحياة الآخرة ؟

وصعد الجميع بضع درجات أيضا ، فوصلوا الى السطح الأول من سطوح البرج • انهم الآن على علو شاهق ، غير أن هناك فتحة في الحائط تؤدي الى مكان أعلى ، خلال ممر أكثر اتعابا وازعاجاً أيضا• ومن على السطح الأخير يطل المرء على منظر واسع رائع • كانت الشمس قد مالت الى الغروب ، وكانت سحائب من الظل تمتد في الوادي • وهناك غيمة كبيرة ثقيلة في المشرق • ان الأماكن البعيدة مدثرة بغلالات المساء ، غير أن أشعة الغروب تنتزع من الظلال الزرقاء ، هنا وهنا ، جدارا أبيض ، أو نافذة حمراء ، أو لهبا يشتعل فوق الصليب من برج ناقوس بعيد •

وكانوا جميعا صامتين • في هذا المكان المرتفع كانت الريح النقية ، الخالية من روائح الأرض ، تهب في الكوى من الجدار ، وتهز الحبال وتقتحم الأجراس فتوقظ في بعض الأحيان أصداء متصلة : رنين معدني عميق تدرك فيه الأذن شيئا كأنه موسيقى بعيدة غامضة ، ان النحاس يتأوه تأوها حزينا كئيبا • وكان المنظر الذي يمتد في أسفل غارقا في هدوء رصين ، وسلام لايعكره شيء •

ولكن الصمت الذي خيم على الجماعة الصغيرة كان له سبب آخر أيضا • ان الأعميين ، لا حساسهما بعلو المكان ، وبضعفهما ،

Twitter: @ketab_n

قد اقتربا من زوايا الداربزين ، واستندا اليه بكلتا اليدين ، وظلا واقفين هنالك ، وقد أدارا وجهيهما الى الجهة التي كانت تأتي منهـا ريح المساء الناعمة •

ان كل واحد قد لاحظ الآن تشابههما الغريب • كان دقاق الناقوس أكبر من بطرس قليلا في السن • وكانت جبته العريضـة تهبط على جسمه الناحل الضعيف طيات طيات • ان قسمات وجهه أبرز وأقسى من قسمات وجه بطرس • وبعد قليل من انعام النظر ، يلاحظ المرء ما بينهما من فرق • ان الدقاق أشقر ، مقوس الأنف قليلا ، وشفتاه أرق من شفتي بطرس ، وله شاربان ، ولحية صغيرة فظة تزين ذقنه • ولكن الحركات ، وثنيـات الشفتين العصبية ، واضطراب الحاجبين بلا انقطاع ، كل ذلك كان يظهر شبها بينهما لكأنهما أخوان •

كان وجه بطرس أميل الى الهدوء ، يقرأ فيه المرء حزنامألوفا، يتجلى في وجه دقاق الناقوس أقوى وأبرز ، وتعززه هنالك شراسة مرة ، وخباثة شريرة • على أن الأعمى كان يهدأ هو الآخر شيئا فشيئا • كأن نسمة الهواء الرخيـة تطرد من جبينه كل غضونه ، وتملأ نفسه بالسلام الجميل الذي تستحم فيه كل الطبيعة الخافيـة عن عينيه العمياوين • وكانت حركات حاجبيه تقل شيئا فشيئا •••

ولكن هاهما يرتعشان كلاهما على حين فجأة ، مرة أخرى ، كأنهما يسمعان ضجة آتية من الوادي لم يدركها الجميع •

قال بطرس :

ـ انهم يدقون الأجراس •

فشرح له دقاق الناقوس يقول :

ـ على مسافة ١٥ فرسخا توجد كنيسة القديس جرجس •

Twitter: @ketab_n

انهم هناك يقرعون الأجراس لصلاة الغروب قبلنا بنصف ساعة •
هل تسمع صوت الأجراس ؟ أنا أيضا أسمعها • ولكن الآخرين لا يسمعونها •

ثم أضاف يقول بلهجة حالمة ، بعد صمت قصير :

ـ الجو جميل هنا ، وخاصة في أيام الأعياد • هل سمعتني مرة أقرع الأجراس •

وكان في سؤاله شيء من غرور ساذج •

ـ تعال اسمع قرعي للأجراس في يوم من الأيام ••• ان الأب بانفيل ••• أنت لا تعرف الأب بانفيل ؟ طيب ••• قد أتى بهذين الجرسين الصغيرين خصيصا من أجلي •

قال ذلك ، وابتعد عن الجدار ، وراح يداعب في كثير من الحب جرسين صغيرين لم يعتما بعد كما اعتمت الأجراس الأخرى•

ـ ما أجمل أنينهما ! كأنهما يغنيان ! لاسيما في صبيحة عيد الفصح •

وتناول الطرف المتدلي من الحبل ، ثم بحركة سريعة من الأصابع جعل الجرسين يهتزان فيحدثان أصواتا متنوعة كأنها تخرج من طبل أصم حزين • كانت الضربات ضعيفة واضحة في آن واحد ، فسمع الجميع رنينها ، ولكن كان لا يجوز أن تتجاوز سطح البرج •

ثم قال وهو يشير الى الجرس الكبير :

ـ أما هذا ، فهو يدوي ••• بو ••• م ! بو ••• م ! بو ••• م !

وأشرق وجهه بفرح طفلي ، غير أن هناك شيئا من مرض يتفطر قلب المرء شفقة حين يراه •

وقال وهو يتنهد :

Twitter: @ketab_n

ـ جاءني بالجرسين ، الأب بانفيل ••• أما أن يشتري لي فروة جديدة ، فلا ••• ذلك لا يخطر بباله ••• هذا البخيل • مع أن البرد في البرج قارس ، لاسيما أيام الخريف ••• ياللطيف ، ما أشد البرد هنا •••

وتوقف ، ثم قال وهو يرهف السمع :

ـ ان الأعرج يناديكم من تحت • هيا ، لقد آن أوانالنزول•

قالت ايفلين وهي تنهض أول الناهضين :

ـ هيا بنا !

كانت حتى ذلك الوقت تتفرس في دقاق الناقوس كأنهـــا مسحورة •

وأخذ الشباب يهبطون ، وظل الدقاق فوق • أما بطرس فانه بعد أن خطا بضع خطوات وراء أمه ، توقف فجأة ، وقال بلهجة آمرة :

ـ انزلوا ، سألحق بكم بعد لحظة •

وأصبح لا يسمع وقع الخطوات • ولكن ايفلين لم تذهب ، بل تركت آنا ميخائيلوفنا تمر ، ولطت بالحائط حابسة أنفاسها •

كان الأعميان يظنان أن ليس في البرج أحد غيرهما • وظلا ساكنين جامدين بضع لحظات ، مضطربين ، يصغيان الى شيء • قال دقاق الناقوس أخيرا :

ـ من هنا ؟

ـ أنا

ـ أنت أيضا أعمى ؟

ـ نعم ، أعمى • هل فقدت بصرك منذ مدة طويلة ؟

ـ ولدت أعمى • يوجد هنا أعمى آخر ، رومان ••• ذاك فقد بصره في السنة السابعة من عمره ، وأنت ، هل تفرق بين الليل والنهار ؟

Twitter: @ketab_n

ـ نعم أفرق •
ـ أنا أيضا أفرق • أحس بالفجــــر حين يبزغ • رومان لايستطيع ذلك ، ومع ذلك فالعمى أسهل عليه •
هنا سأل بطرس بحرارة :
ـ لماذا ؟
ـ لماذا ؟ ألا تفهم لماذا ؟ لقد رأى هو النهار ••• وهو يتذكر أمه • انه متى نام تظهر له أمه في الحلم • على أن أمه أصبحت الآن عجوزا ، وهو مايزال يراها صبية • وأنت ، هل ترى أحلاما ؟
فقال بطرس بصوت بهيم :
ـ لا •
ـ نعم ، هكذا الذين يفقدون بصرهم • أما نحن الذين ولدنا عميا •••
كان بطرس كالحا مظلما ، كأن سحابة قد غشيت وجهه •
وصاح دقاق النواقيس فجأة :
ـ عفوك وغفرانك يارب ••• انني خاطي ••• ولكن يارب ، ياعذراء ، ليتني أرى النهار ، ولو مرة واحدة •
وتشنج وجهه ، ثم قال وقد بدت على وجهه المرارة التــــي ظهرت منذ لحظة :
ـ ولكن لا ••• انهما لايريدان ••• يحلم أحدنا بشيء ، ويأخذ الصباح يطلع ••• فما نكاد نستيقظ حتى نكون قد نسينا كل شيء •
ثم توقف فجأة ، وأرهف السمع • فامتقع وجهه ، وتقبضت قسماته • وقال في بغض وكره :
ـ لقد تركوا العفاريت يدخلون •
كانت تصعد من تحت ، في الممر الضيق ، أصوات خطوات وصرخات أطفال ، كأنها هــــدير طوفان • وما هي الا لحظـــــة

Twitter: @ketab_n

حتى صمت كل شيء • لقد وصلوا الى السطح الأسفل ، وصارت جلبتهم تخرج الى الفضاء • ولكن سرعان ما عاد السلم المظلم يهدر كأنبوب أرغن ، ثم مر كالبرق ، أمام ايفلين ، سرب فرح من الأطفال ، يركضون متسابقين ، وتوقف الأطفال عند الدرجة الأخيرة من درجات السلم ، وراحوا يتداخلون أمام الأعمى ، وأخذ الأعمى ، وقد تشوه وجهه من شدة الغيظ والحنق ، يقذف بقبضتيه المشدودتين ، هنا وهناك ، محاولا أن يصيب بهما الغزاة •

وفجأة ظهرت شخصية جديدة من الظلام ، من السلم • انه رومان • كان وجهه عريضا ، هادئا ، قد خربه الجدري • وكان جفناه الهابطان يخفيان حفرتي عينيه وكانت بسمة طيبة حليمة تتلاعب في شفتيه • مر أمام الفتاة التي ظلت لاطية بالحائط ، وخرج الى السطح ، فاذا بذراع رفيقه المرفوعة تهوي على نقرته تماما •

فهتف بصوت جميل يخرج من الصدر :

ـ أيها الأخ ، يايبجور ، أتظل في معركة دائمة !

وتصادم الرجلان وأخذ كل منهما يجس الآخر : قال ييجور بصوت ما يزال يرتعش غضبا :

ـ لماذا تركت هؤلاء العفاريت يدخلون ؟

فأجاب رومان ، بلهجته الطيبة الحليمة :

ـ ولماذا لا أدعهم يدخلون ؟ هؤلاء عصافير الجنة • أنظر كم أرعبتهم ! أين أنتم أيها الأوغاد الصغار ؟

كان الأولاد صامتين كل الصمت ، لائذين بالزوايا ، خائفين • ولكن أعينهم كانت تلتمع بالمكر •

وبينما كانت ايفلين تسير في الظلام بلا ضجيج ، وقد اجتازت نصف السلم الأول تقريبا ، سمعت وقع خطوات الأعمين ، تدوي وراءها ثابتة واثقة • وفي الأعلى كان الأطفال يعوون ويصرخون

Twitter: @ketab_n

مرحين ، وقد هجموا جميعـا على رومان ، الذي ظل بينهم •
وفيما كان الزوار يتركون الدير ، أخذت أصوات النواقيس ترن في البرج • انه رومان يقرع الأجراس لصلاة الغروب •
غربت الشمس • والعربة تسير في الحقول المظلمة ، تشيعها أصوات الأجراس الحزينة التي تنطلق فواصل متساوية ، وتفنى في الظلال الزرقاء من الغسق •
لزم الركب كله الصمت في طريق العودة • وأثناء السهرة ، غاب بطرس مدة طويلة • كان جالسا في مكان ما ، في ركن مظلم من الحديقة ، لا يجيب على نداء ايفلين • وعاد الى غرفته تلمسا ، حين كان الجميع قد أووا الى مضاجعهم •

٤

قضت أسرة بوبلسكي بضعة أيام أخرى في ضيافـة أسـرة ستافروتشنكو • كان مزاج بطرس يصفو في بعض اللحظات ، فاذا هو منتعش بل مرح ، يعزف على عدة آلات موسيقية • كان يملك الابن الأكبر من ابني ستافروتشنكو مجموعـة كبيرة من الآلات وكانت هذه الآلات تشوق الأعمى كثيرا ، بأصواتها الخاصة التي تعبر عن ألوان شتى من العاطفة •
ولكن كان واضحا انه مرهق ، وأن الفترات التي يصفو فيها مزاجه ليستالا ومضات قصيرة على سطح عام ماينفك يظلم •
وما كان أحد يشير الى زيارتهم للدير ، كأنهم في ذلك عـلى اتفاق • وكأن هـذا الجزء كلـه من المسـرة قـد زال من ذاكراتهم ونسي كل النسيان • ومع ذلك كان من السهل أن يلاحظ المرء أن ذكرى تلك الزيارة منقوشة في قلب الأعمى • فكان كلما خلا الى

Twitter: @ketab_n

نفسه ، أو خيم صمت ، أو أصبح لا يلتفت الى مناقشات الآخرين ، يغرق في التأمل ، وترتسم على وجهه آثار مرارة عميقة • ذلك تعبير قد عهدوه فيه منذ زمان طويل ، ولكنه يقوى الآن ، ويذكر تذكيرا رهيبا بالتعبير المرتسم على وجه الأعمى دقاق الأجراس •

وكان حين يجلس الى البيانو ، ويستسلم لا لهامه ، كثيرا ما يدخل في عزفه ألحان الأجراس ، وآهات الناقوس الكبير ، التي تدوي في أعلى البرج • وكانت تنبجس في خيال كل واحد منهم تلك الصور التي لايجرؤ أحد منهم على الحديث عنها : السلالم المظلمة ، الوجه النحيل الشاحب شحوب المرض ، وجه الأعمى دقاق الأجراس ، غضبه ، حنقه ، شكواه المرة من القدر ••• ثم الأعميان في البرج وقفا وقفة واحدة ، ولاح على وجهيهما تعبير واحد ، وأخذت حواجبهما تضطرب بحركات قلقة واحدة • ان ما كان يظنه أهل بطرس وأصدقاؤه طابعا خاصا به ، هو اذن ميسم ذلك الشقاء المشترك التي يؤثر في جميع ضحاياه تأثيرا خفيا واحدا •

قال العم مكسيم لأخته حين عادت الأسرة الى بيتها :

ـ اسمعي يا آنا ، هل تعرفين ما الذي وقع أثناء هذه الرحلة ؟ انني أرى أن ابننا قد تغير منذ ذلك اليوم •

فأجابت آنا ميخائيلوفنا ، وهي تزفر زفرة طويلة :

ـ آه ••• هذا نتيجة ذلك اللقاء مع الأعمى •

لقد بعثت آنا ميخائيلوفنا الى الدير منذ مدة قصيرة بفروتين من جلد الخروف ، وبمبلغ من المال ، وبرسالة الى الأب بانفيل ترجوه فيها أن يهون على الأعميين مصابهما ، ما أمكنه ذلك • انها طيبة القلب ، كريمة جدا ، ولكنها نسيت رومان في أول الأمر ، وان ايفلين هي التي ذكرتها بأن العناية يجب أن تشمل الشقيين كليهما• فأجابتها بقولها : « ها •• نعم ، صحيح ! » ولكن كان واضحا أن

Twitter: @ketab_n

ذهنها كان مشغولا بواحد منهما فحسب . ان نوعا من الاعتقـــــاد الخرافي كان يمازج رحمتها الحارة : كان يبدو لها أن عمل البر هذا سيساعدها على تهدئة تلك القوة الرهيبة المظلمة التي تهوم منذ الآن ، كظل أسود ، فوق رأس ابنها .

سألها العم مكسيم :

ـ لقاء أي أعمى ؟

ـ الأعمى الذي ... في برج الأجراس ...

فضرب العم مكسيم الأرض بعكازه غاضبا مهتاجا ، وقال :

ـ ما أشقى أن يكون الانسان حملا ثقيلا ليس له ساقان !

ـ هل نسيت أنني لاأصعد أبراج الأجراس !يستحيل أن يتفاهم المرء مع النساء ! ايفلين ، يا عزيزتي ، هلا حاولت أن تقصي علي ما جرى بالبرج ، على نحو معقول مفهوم ؟!

فأجابت الفتاة ، وكانت قد فقدت ألوان وجهها منذ بضعـــة أيام ، أجابت تقول بصوت شديد الخفوت :

ـ المسألة ... أن هناك دقاقا للأجراس أعمى ... وهو ...

وتوقفت عن الكلام . وخبأت آنا ميخائيلوفنا وجهها المحترق الذي تجري عليه دموع غزيرة .

ـ ... وهو ... وهو يشبه بطرس كثيرا .

ـ ولكنكم لم تحدثوني عن شيء من هذا ! ايه ، ثم ! لست أرى الى الآن ما يوجب مأساة ، يا آنيا ؟

قال ذلك بلهجة عتاب رقيق .

فقالت آنا ميخائيلوفنا بصوت مختنق :

ـ آه ... انه لشيء فظيع ؟

ـ ما هو الشيء الفظيع ؟ كونه يشبه ابنك ؟

فرشقت ايفلين العجوز بنظرة سريعة ذات دلالة ، فصمت .

Twitter: @ketab_n

وخرجت آنا ميخائيلوفنا بعد لحظة ، وبقيت ايفلين وهي تحمل تطريزها المعتاد بين يديها .

سألها العم مكسيم بعد صمت قصير :

ـ ما قلت لي كل شيء !

ـ لا ... حين نزل الجميع بقي بطرس فوق . طلب من خالتي آنيا (هكذا كانت تسمى مدام بوبلسكا ، منذ طفولتها) أن تتبع الركب ، حتى يخلو بالأعمى . ولكنني ... أنا ... بقيت .

قال المربي العجوز على نحو يكاد يكون آليا :

ـ لتتجسسي عليهما ؟

فأجابت ايفلين بقولها :

ـ لم أستطع أن أذهب . كانا يتحدثان حديث ...

ـ حديث رفيقين جمعهما الشقاء ..

ـ نعم هكذا ... حديث أعميين . ثم توجه ييجور الى بطرس يسأله هل يرى أمه في أحلامه ، فأجابه بطرس : « لا ! » . وكان ييجور لا يرى أمه هو أيضا . ولكن هناك أعمى آخر ، اسمه رومان ، يرى أمه في أحلامه صبية ، مع أنها شاخت الآن واصبحت عجوزا ...

ـ ثم ؟

وأطرقت ايفلين تفكر ، ثم رفعت الى العجوز عينيها الزرقاوين اللتين كان يلتمع فيهما الألم والصراع في آن واحد ، وقالت :

ـ الأعمى الآخر ، رومان ، كان طيبا حليما هادئا . وجهه حزين ، ولكنه غير خبيث ابدا . ولد مبصرا ... أما الآخر ، فهو يتألم ألما فظيعا ...

قالت ذلك وهي تدير وجهها .

فقاطعها العم مكسيم ، وقد نفد صبره :

Twitter: @ketab_n

ـ قولي بصراحة ، أرجوك ، هل الآخر شرس ؟

ـ نعم . أراد أن يضرب الأولاد ،وكان يشتمهم طوال الوقت أما رومان ، فالأولاد يحبونه ، طبعا .

ـ اذن هو شرير خبيث ، ويشبه بطرس كثيرا ... نعم ، فهمت ... قال العم مكسيم ذلك ، وقد بدت على وجهه علائم التفكير والذهول .

وصمتت ايفلين لحظة ، كأن هذه الكلمات تكلفها صراعاداخليا شاقا جدا ، ثم قالت بصوت خافت :

ـ هما لايتشابهان في الوجه ... ان قسماتهما متباينة كل التباين . كنت منذ مدة قصيرة أرى في وجه بطرس تعبيرا أشبه بتعبير وجه رومان . أما الآن فأرى انه يزداد شبها بالآخر ...حتى انني ، أخشى ، أعتقد ....

ـ ماذا تخشين ؟ تعالي الى هنا يا عزيزتي العاقلة ...

قال العم مكسيم ذلك بلهجة رقيقة رائعة .

فلما اقتربت منه ايفلين ، وقد أثرت فيها هذه الرقة التي لا تتوقعها ، وترقرقت الدموع في عينيها ، طاف مكسيم بيده الضخمة على شعرها الحريري ، وقال :

ـ اذن ، ماذا ترين ؟ قولي يا عزيزتي ؟ أرى أنك تحبين التفكير .

ـ أرى أنه أصبح الآن يعتقد أن جميع الذين يولدون عميا أشخاص خبثاء شريرون .... وأيضا ... أقنع نفسه أنه هو أيضا خبيث شرير ، من غير شك ..

ـ فصاح العم مكسيم :

ـ ها ... هكذا اذن !

ثم رفع يده ، وقال لها :

Twitter: @ketab_n

ـ هل لك ياصغيرتي أن تناولينني الغليون ؟ هذا هو ، على مسند النافذة .

وبعد بضع لحظات ، أخذت حلزونات الدخان الزرقاء تصعد فوق رأسه .

ودمدم يقول بينه وبين نفسه :

ـ نعم . هذا سيء . لقد أخطأت ، وكانت آنيا على حق . من الممكن جدا أن يتألم الانسان وأن يضجر ، اذا حرم من شيء لم يعرفه أبدا . ان الشعور سيتبع الآن الغريزة . صدفة لعينة ... ولكن هذا أمر كان لابد أن يقع . الحقيقة توجع دائما . كان ذلك اليوم سيجيء ، عاجلا او آجلا .

وغرق في السحاب الأشهب الأزرق .

في هذا الرأس المربع ، رأس المحارب الأبتر ، كانت تغلي أفكار ، وتنضج قرارات جديدة .

٥

جاء الشتاء . غطى الثلج الكثيف الطرقات ، والحقول ، والقرى . القصر أبيض . كبب خفيفة من الثلج تتراكم فوق الأشجار ، كأن الحديقة قد ازدهرت بأوراق بيضاء . النار تفرقع في الموقد الكبير ، والذين يأتون من فناء البيت يحملون رائحة الثلج الرخو وطراوته .

كان الأعمى يحس بالجمال الشعري في أول أيام الشتاء ،على طريقته . كان حين يستيقظ ، يشعر بقوة خاصة . وكان يعرف حلول الشتاء من وقع أقدام الداخلين الى المطبخ ، من اصطكاك الأبواب ، من تيارات الهواء الخفيفة التي تجوب البيت كله ، من

Twitter: @ketab_n

خشف الثلج في فناء البيت ، من « البرودة » الخاصة في الأصوات التي تترامى اليه من الخارج • وكان حين يذهب مع يوكيم الى الحقول يشعر بلذة كبيرة ، اذ يصغي الى صراخ الثلج تحت المزالج، والى الأصداء المترجعة التي تتبادلها الغابة والحقل والطريق الكبير•

أما في هذه المرة فان اليوم الأبيض الأول لم يحمل له الاحزانا أشد من أي حزن مضى • انتعل منذ الصباح الباكر حذاءين عاليين ، وخرج متجها الى الطاحون ، خلال الممرات التي يغطيها الثلج •

ان صمتا مطلقا يخيم في الحديقة • والأرض المتجلدة المغطاة ببساط ناعم كثيف لاترجع أي صدى • ولكن الهـواء النقي الرنان يحمل من المسافات البعيدة نعيق غراب ، وضربات فأس ، وطقطقـة غصن يتكسر فجأة • ومن حين الى حين يسمع صوت غريب ، كأنه صوت انكسار كأس رقيق ، يبلغ أعلى النغمات ، ثم كأنه يموت في الآفاق البعيدة البعيدة • انهم أطفال يرجمون بالحصى غدير القرية الذي غشيته في الليل طبقة رقيقة من الجليد •

وقد تجلد غدير القصر هو الآخر ، ولكن الساقية الصغيرة التي تقع على مقربة من الطاحون ، كانت مياهها ما تزال تجري بين ضفتيها المغمورتين بالثلج ، وتخر في الحوائل خريرا ناعما ، وقد ازداد جريانها بطء ، وازداد لونها سوادا •

اقترب بطرس من السد ، ووقف عنده • ان خرير الماء قد تغير الآن كل التغير ، انه ثقيل ، لا لحن له ، يحس المرء فيه برودة الطبيعة النائمة •

كذلك كانت نفس بطرس ، باردة معتمة • ان ذلك الشعور الغامض الذي كان يصعد من أعماق نفسه حتى في تلك السـهرة السعيدة ، والذي كان يولد فيه الخوف ، والشك ، والاستياء ، قد نما وترعرع منذ ذلك الحين ، وحل في نفسه محل الفرح وآمال السعادة •

Twitter: @ketab_n

كانت ايفلين غائبة عن القصر ، لقد سافرت أسرة ياسكولسكي الى ربة نعمتها القديمـــــة ، الكونتيسة بوتوكا ، التـــي طلبت الى العجوزين في كثير من الالحاح أن يجيئا اليها بابنتهما • وقـــد مانعت ايفلين في السفر أول الأمر ، ولكنها أذعنت بعد ذلك لارادة أبيها الذي انضم اليه العم مكسيم وسانده مساندة قوية •

حين وقف بطرس على مقربة من الطاحون ، كان يتذكر عواطفه القديمة ، ويحاول أن يرد اليها الحياة مليئة كاملة،ويتساءل: أهو يفتقد ايفلين حقا ؟ نعم ، انه يفتقدها ، من غير شك ، ولكنــه يدرك في الوقت نفسه ، أن وجود ايفلين ما كان يحقق له السعادة ، وأنها ، بالعكس ، كانت تسبب له كثيرا من الآلام التي كانت تهدأ متى غابت ايفلين •

وكانت كلمات ايفلين ماتزال ترن في أذنيه • انه يتـــذكر تذكرا واضحا جميع تفاصيل المكاشفة الأولى ، ويحس بشعرهـــا الحريري تحت يده ، ويشعر بخفقات قلبها فوق صدره • هـــذا المشهد كله كان يؤلف في الماضي صورة تملأ نفسه بهجة • أما الآن فان شيئا لا شكل له ، شيئا كالأشباح الغامضة التي يعج بهـــا خياله المظلم ، ينفخ على هذه الصورة ، فتزول • أصبح لايستطيع أن يجمع بين هذه الذكريات في لحن منسجم من العواطف التي كان يطفح بها قلبه في الأيام الأولى • ولقد كان منذ البداية يحس بكمون « شيء » في أعماق تلك العاطفة ، غير أن هذا « الشيء » قد بزغ الآن واضحا ، كما تبزغ في الأفق سحابة اعصار •

انطفأ صوت ايفلين وحل الفراغ محل الذكريات المشرقـــة ، ذكريات تلك السهرة السعيدة • وهذه عاطفة جديدة تصعد من أعماق نفس الأعمى ، ثقيلة مؤلمة ، لتملأ ذلك الفراغ •

انه يريد ان يراها !

كان شعوره ، فيما مضى ، ألما لاأكثر ، ألما أصم يقلقه ويعذبه

Twitter: @ketab_n

على صورة غير واضحة ، كوجع في الأضراس لم نلتفت اليه بعد •

ولكن لقاء الأعمى دقاق الناقوس ، قد بث في هذا الوجع حدة ألم معروف محدد •

انه يحبها ويريد أن يراها •

هكذا كانت تنقضي الأيام في القصر الهـــادىء المدفون في الثلج •

كانت ذكريات السعادة تنبجس أمام بطرس من حين الى حين، قوية ساطعة ، فتنتعش نفسه بعض الانتعاش ، ويضيء وجهه • ولكن هذا كان لايدوم مدة طويلة ، ومع مضي الزمن ، أصبحت هـــذه الدقائق المشرقة مليئة بالقلق ، كأن الأعمى كان يخـــاف أن يراها تذهب الى غير رجعة ، في كل لحظة • وجعله هذا الخوف متقلبا ، فمن لحظات تتدفق فيها العاطفة عفوية قوية ، وتهتاج فيها الاعصاب اهتياجا عنيفا ، الى أيام برمتها يسيطر على نفس الفتى فيها شعور بارهاق أسود مظلم • وفي المســاء كان البيانو يبكي في الصـــالون ، يبكي ويملأ الهواء بكآبة عميقة موجعة ، وكان كل صوت من أصواته يرجع في قلب آنا ميخائيلوفنا صدى أليما • وأخيرا تحققت أسوأ مخاوفها : فان الأحلام المقلقة التي راودت بطرس في طفولته عادت اليه وتسلطت عليه •

دخلت الأم ذات صباح الى غرفة ابنها • انه مايزال نائما ، ولكن نومه قلق يلفت النظر : ان عينيه مغمضتان نصف اغماض ، وهذه نظرة رقيقة تتسلل من تحت الجفنين المفتوحين ، والوجـــه شاحب يعبر عن الاضطراب •

وقفت آنا ميخائيلوفنا ، وأخذت تتفرس في وجه ابنها ،محاولة أن تكتشف سبب هذا القلق الغريب • ولكنها لم تر الا أن هـــذا القلق في تزايد وصعود ، وأن وجه بطرس يعكس توترا داخليا ما ينفك يشتد •

Twitter: @ketab_n

وفجأة أحست كأن حركة طفيفة لاتكاد تدرك وقعت فوق سرير ابنها • ان شعاعا من أشعة شمس الشتاء الساطعة قد سقط على الحائط ، فوق سرير بطرس ، ثم اضطرب اضطرابا خفيفا ، وانزلق الى تحت •••• كان هذا الخيط الصغير من الضوء ينزلق بهدوء ، مقتربا من عيني النائم،المغمضتين نصف اغماض ، وكان اهتياج بطرس يزداد •

كانت آنا ميخائيلوفنا ساكنة جامدة في وقفتها ، وكانت في حالة تشبه أن تكون حالة النائم يرى حلما رهيبا ، انها لا تستطيع ان تنتزع بصرها من الخيط المشتعل من النور الذي يتراءى لها هابطا نحو وجه ابنها في خطوات متقطعة خفيفة ، ولكنها ترى • وكان هذا الوجه يزداد شحوبا ، ويتطاول ، ويتجمد كأنه قناع ذو قسمات مشدودة متوترة بجهد داخلي • ولامس الشعاع الذهبي شعر بطرس ، وأنار جبينه • فاذا الأم تندفع الى أمام ، بحركة غريزية ، تريد ان تدافع عن صغيرها ، ولكن ساقيها لم تتحركا ، كأنها في حلم سيء ، في كابوس • وانفتح جفنا المراهق ، وراحت ومضات متلألئة تتلاعب في حدقتيه الساكنتين ، ونهض رأسه عن المخدة لاستقبال النور • ان شيئا يشبه أن يكون ابتسامة أو ربما شهقة بكاء ـ يلم بشفتي الأعمى، يركض فيهما اختلاجا ثم يقف ، ويتجمد الوجه مرة أخرى على اندفاعة •

واستطاعت الأم أن تتغلب على الجمود الذي أصاب جسمها ، فاقتربت من السرير ، ووضعت يدها على رأس بطرس • فارتعش واستيقظ ، يسأل :

ـ أهذه أنت يا أمي ؟

ـ نعم أنا يا بني •

ونهض • كأن ضبابا ما يزال يغشى شعوره • ولكنه قال بعد دقيقة :

Twitter: @ketab_n

ـ لقد عدت أحلم • واني لأحلم الآن في كثير من الأحيان • ولكنني لا أتذكر شيئا •

٦

ان المزاج الكئيب اليائس قد حل محله في نفس بطرس اهتياج عصبي شديد • وفي الوقت نفسه كانت حدة احساساته تزداد كل يوم • لقد رهف سمعه رهافة عجيبة ، وأصبح يحس بالضوء في جسمه كله ، يحسه حتى أثناء الليل • انه يميز ضوء القمر في ليلة معتمة ، وكان يتفق له كثيرا أن يتنزه في الفناء مدة طويلة ، بعد أن يهجع جميع من في البيت فيسير حزينا صامتا مستسلما لذلك التأثير العجيب الذي يحدثه القمر وضوءه الحالم المسحور في النفس ، وكان وجهه الشاحب يتجه دائما ، في هذه اللحظات ، نحو القرص المتوهج السابح في الأثير ، وكانت عيناه تعكسان تلألؤ الأشعة الباردة •

حتى اذا تحجب القرص المتوهج ، الذي يكبر كلما هبط ، بضباب كثيف أحمر ، وغاب وراء الأفق المثلوج بطيئا بطيئا ، ازداد وجه الأعمى هدوءا ونعومة ، وعاد الى البيت •

يصعب أن يقال فيم كان يفكر أثناء تلك الليالي الطويلة • ان كل انسان أحس بأفراح الحياة الواعية وبأتراحها ، يعاني في سن معينــــة أزمــة شديدة بعض الشدة • انـــه اذ يقف على عتبةالحيــاة الفاعلة الناشطة ، يحاول أن يعين مكانه في الطبيعة ، وأن يحدد قيمته، وأن يعرف علاقاته بالكون الذي يحيط به • تلكم مرحلة حرجة ، وسعيد ذلك الذي يملك من القوة ما يمكنه من اجتيازها بسلام دون أن يتحطم • وطبيعي أن تكون الأزمة لدى بطرس أشد وأفدح ، اذ أنه لايتساءل ذلك التساؤل العام وحده : « علام أحيا ؟ » بــل

Twitter: @ketab_n

يتساءل أيضا : « علام يحيا أعمى ؟ » • أضف الى هذا العمل الفكري الخالي من الفرح شيئا آخر غريبا ، هو نوع من الانزعاج الجسمي الناشئ عن حاجة لا تجد سبيلها الى الارتواء ، ولقد أثر هذا في تكوين طبع الشاب تأثيرا كبيرا •

عادت أسرة ياسكولسكي الى مزرعتها قبل عيد الميلاد بقليل ، وأسرعت ايفلين الى القصر تفيض بالحياة والنشاط والفرح ، وقد اغبر شعرها بالثلج وتنضرت من شعورها بالبرد ، أسرعت الى القصر ، وأخذت تعانق آنا ميخائيلوفنا ، والعم مكسيم ، وبطرس • وأضاء وجه الشاب بفرح مفاجيء ، في أول الأمر ، ولكن معاني حزن عنيد ما لبثت أن عادت الى الظهور في وجهه •

قال للفتاة بلهجة جازمة ، في ذلك اليوم نفسه ، منذ خلا كل منهما بالآخر :

ـ هل تعتقدين بأنني أحبك ؟

فأجابته ايفلين تقول :

ـ بل أنا على يقين من ذلك •

فرد عليها الأعمى ، عابسا متجهما أكثر من أي وقت مضى :

ـ أما أنا ••• فلا أعرف ذلك • نعم لا أعرف • كنت منذ مدة غير طويلة ، على يقين مطلق ، أنا أيضا ، من أنني أحبك أكثر مما أحب أي شيء في هذا الوجود • ولكنني الآن لا أعرف • دعيني اذن ، وأطيعي أولئك الذين يدعونك الى أن تعيشي حياة حقة ••• وعليك بذلك قبل أن يفوت الأوان •

قالت ايفلين تعاتبه عتابا ناعما :

ـ لماذا تعذبني ؟

فسألها بطرس ، وقد قسا وجهه مرة أخرى بتعبير عن أنانية عنيدة :

Twitter: @ketab_n

ـ أأنا أعذبك ؟ ها ••• نعم نعم انني أعذبك ، وسأظل أعذبك هكذا دائما ، مدى الحياة ، ولا أستطيع أن أفعل غير ذلك •• كنت لا أعرف هذا ، ولكنني الآن أعرفه ••• وليس الذنب ذنبي • ان ذلك القدر نفسه ، الذي حرمني من البصر ، حتى قبل أن أولد ، هو الذي وضع في قلبي روح الشر هذه • اننا جميعا هكذا ، نحن الذين نولد عميا ••• دعيني ، دعوني جميعا ، لأنني لا أستطيع أن أجزيكم على حبكم الا آلاما • أريد أن أرى ، هل تفهمين ما أقوله لك ؟ نعم أريد أن أرى ، ولم أستطع أن أغلب هذه الرغبـــــة في نفسي • لو استطعت أن أراكم مرة واحدة أنت وأمي والعم مكسيم ، لأصبحت سعيدا ••• ذلك لأنني أستطيع عندئذ أن أحمل ذكراكم في كل مايبقى لي من حياة أقضيها في ظلمات •

كان يعود الى هذه الفكرة دائما ، في عناد عجيب • كان متى خلا بنفسه ، يتناول بيديه أشياء مختلفة ، يجسها ويتلمسها بانتباه شديد ، ثم يضعها جانبا ، ويأخذ يفكر في هذه الأشكال التي درسها ، وفي الفروق بين السطوح الملونة بألوان قوية ، هذه الفروق التي كان لماأوتيته جملته العصبية من حساسية مرهفة الى أبعد حدود الرهافة، يستطيع أن يدركها باللمس ادراكا غامضا مبهما • ولكن ذلك كله كان يصل الى شعوره فروقا لا أكثر ، دون أن يعطيه أي فكرة عيانية عن ماهيتها الواقعية • انه يميز الآن بين نهار شامس وليل مظلم ، من مجرد تأثير الضوء الشديد الذي كان اذ يفعل في دماغه بطرق غير شعورية ، يولد فيه اندفاعات ما تنفك تزداد ايلاما •



دخل العم مكسيم الصالون ذات يوم، فوجد فيه ايفلين وبطرس• الفتاة تبدو مضطربة حائرة ، ووجه الأعمى عابس كالح• لقد أصبح

Twitter: @ketab_n

بطرس منذ مدة من الوقت ، كأنه يشعر بحاجة لا تقاوم الى البحث عن ينابيع من الآلام ، والى تعذيب نفسه ، وتعذيب جميع من حوله .

قالت الفتاة للعم مكسيم :

ـ انه يسألني ما هو « الرنين الأحمـــر في قرع الأجراس » ؟ ولا أدري كيف أشرح له ذلك .

فاتجه مكسيم الى بطرس يسأله في ايجاز :

ـ ماهي المسألة ؟

فهز الأعمى كتفيه ، قائلا :

ـ السؤال بسيط . ما دامت الأصوات ذات ألوان لا أراها ، فمعنى ذلك أنني لا أدرك حتى الأصوات ادراكا تاما . هـــذه هي المسألة .

فقال العم مكسيم بلهجة جازمة :

ـ هذا هراء صبياني وترهات ، لا أكثر من ذلك ولا أقل . أنت نفسك تعرف أن هذا الكلام غير صحيح : انك تدرك الأصوات ادراكا أتم وأكمل من ادراكنا نحن لها .

ـ اذن فماذا يعني هذا التعبير،على ماذا يدل ؟ لا بد أن له معنى، أليس كذلك ؟

وظل مكسيم واجما يفكر . وقال اخيرا :

ـ هذا تشبيه لا أكثر . اذ ما دام الصوت ، كالضوء ، نتيجـة حركات ، فلا بد أن يكون بينهما كثير من الخصائص المشتركة .

فتابع الأعمى كلامه يسأل في عناد واصرار :

ـ حسن ، فما هي تلك الخصائص الطبيعية في هذه الحالة ؟ كيف هو « الرنين الأحمر » على وجه الدقة ؟

وأخذ العم مكسيم يفكر .

وخطر بباله ، فجأة ، تعليل يتصل بعدد الاهتزازات ، ولكنـه

Twitter: @ketab_n

أدرك أن هذا ليس هو ما يريده الأعمى ••• وتذكر خاصة أن ذلك الذي كان أول من استعمل في ميدان السمع هـــذا النعت البصري الصرف ، لم يكن على علم بالفيزياء حتما ، ولم يمنعه ذلك من ادراك شيء من الشبه • فأين يثوي اذن هذا الشبه ؟

وأخذ يتكون في ذهن العجوز تعليل • قال :

ـ انتظر ، انتظر ••• ولكنني لا أعرف هل أستطيع أن اشرح لك هذا التعليل كما يجب • انك تعرف مثلمـــا أعرف أنا ما معنى « الرنين الأحمر » • فلقد سمعته في المدينة غير مرة ، أيام الأعياد ، ولكن هذا التعبير غير شائع على الألسن في بلدنا •

فقاطعه بطرس يقول وهو يفتح البيانو بسرعة :

ـ ها ••• نعم ، انتظر لحظة •

وأخذ يضرب أصابع البيانو بيده البارعة ، مقلدا الرنين الفخم الذي يسمع من قرع النواقيس في أيام الأعياد •وبلغ من احكام التقليد أنه أخرج أصواتا كأنها قرع النواقيس ذاك بعينه : ايقاع مجموعة من أصوات متوسطة متوافقة ، تبرز على صفحتها ، خفيفة متواثبة ، نغمات سريعة واضحة ، من السلم العالي • انه ذلك الرنين عينه ، الفرح ، الطنان ، الحي الذي يملأ الهواء يوم العيد •

قال العم مكسيم :

ـ نعم ، هذا يشبهه كل الشبه ، ونحن المبصرين لا نستطيع أبدا أن ندرك ذلك الشبه أكثر مما تدركه أنت • اسمع ••• انني حين أنظر في صفحة واسعة حمراء ، تحدث هذه الصفحة الحمراء في بصري تأثيرا مقلقا كأنها نوع من التموج المرن : فالأحمر يتغير ، واذا بي أرى ، هنا وهناك ، على ذلك القاع الراكن نفسه ، موجات أكثر اشراقا ، تطفو بسرعة ، ثم تهبط بسرعة أيضا ••• هذا النوع من الاندفاعات ، ان شئت أن تسميه كذلك ، يؤثر في العين تأثيرا كبيرا ،

Twitter: @ketab_n

أو في عيني أنا على الأقل •

فهتفت ايفلين تقول :

ـ هذا صحيح ، صحيح جدا • أنا أيضا أحس ذلك الأحساس نفسه ، لذلك لا أستطيع مثلا أن أطيل النظر الى فراش أحمر •

ـ تماما كأولئك النفر من الناس الذين لا يطيقون رنين أجراس العيد • لعل هذا التشبيه الذي أتيت به يرضيك • ويوافيني الآن تشبيه ثان : أنت تعرف أن هناك تعبيرا آخر هو قولهم « الرنين الأرجواني » على غرار اللون « الأرجواني » • انهما كليهما قريبان من الأحمر ، ولكنهما أكثر عمقا وانصهارا ونعومة • ويؤكد الهواة أن كل جرس يصبح رنينه بعد الاستعمال الطويل أجمل ، ذلك لأن الصوت يفقد بمضي الزمن تنافراته التي كانت تجرح الأذن ، وعندئذ يصبح للجرس ما يسمى بالصوت « الأرجواني » • ويمكن الوصول الى ذلك بمزاوجة مناسبة بين عدد من الأجراس الصغيرة •

وأخذت ترن تحت أصابع بطرس أصوات كأنها طيران سرب من الأجراس الصغيرة •

قال العم مكسيم :

ـ لا ••• يمكنني أن أقول هذا أحمر ، مفرط في الاحمرار •

ـ ها ••• نعم ••• تذكرت •

وأخذت الآلة تهتز بمزيد من التساوي • كانت الأصوات عالية ، نشيطة ، مشرقة في البداية ، ثم أخذت تزداد عمقا وهدوءا شيئا بعد شيء • كأنها أصوات مجموعة متنوعة من الأجراس الصغيرة علقت بقوس عربة الترويكا الروسية ، والعربة تتدحرج على طريق غبراء متجهة الى آفاق بعيدة مجهولة • ان الرنين المتساوي ينطفىء بهدوء شيئا فشيئا ، دون قرقعات مباغتة ، الى أن تفنى النغمات الأخيرة في صمت الحقول الساكنة •

Twitter: @ketab_n

فصاح العم مكسيم يقول :

ـ نعم هو هذا • لقد فهمت الفرق • في الماضي ، حين كنت صغيرا ، حاولت أمك أن تشرح لك الألوان بالأصوات •

ـ نعم ، أذكر ذلك • ولماذا منعتنا من الاستمرار ؟ لعلني كنت أستطيع التوصل الى الفهم •

فأجاب العجوز ، وهو يفكر :

ـ لا ••• لا أعتقد • ويخيل الي من جهة أخرى أن الانطباعات التي تتركها الألوان والأصوات ، تدرك متجانسة ، في عمق معين من النفس • كثيرا مانقول « هذا امرؤ ينظر الى الحياة نظرة وردية » ومعنى هذا أن له قلبا خفيفا • ان هذه الحالة النفسية نفسها يمكن أن نولدها بمزاوجة بين الأصوات خاصة • وجملة القول ان الأصوات والألوان هي رموز لحالات نفسية واحدة •

وأشعل العم مكسيم غليونه ، ونظر الى بطرس نظرة منتبهة : كان الأعمى ساكنا يصغي الى محدثه في كثير من النهم • وتساءل العجوز بينه وبين نفسه : « هل استمر ؟ » ، ولكنه ما لبث أن انساق مع تيار أفكاره ، كأنما على مضض ، فأردف يقول :

ـ نعم ، نعم ، الأمر كذلك ••• ان افكارا غريبة توافيني في كثير من الأحيان • هل من الأمور العرضية أن دمنا أحمر اللون ؟ اسمع ••• حين تولد فكرة في رأسك ، حين توافيك أحلام تجعلك ترتعش وتبكي متي استيقظت ، حين يلتهب قلب الانسان بهوى عنيف فمعنى هذا أن الدم الذي فاض به القلب يرتفع الى الدماغ موجات قوية ••• ودمنا هذا أحمر اللون •

قال الشاب حالما :

ـ أحمر ••• وحار •

ـ تماما ••• أحمر وحـــــار • ان اللون الأحمر مرتبط في

Twitter: @ketab_n

تصوراتنا ، « كالأصوات الحمراء » بالنور ، بالانتعاش الفرح ، بالهوى الذي يوصف بأنه « حار » ، وبأنه يتدفق ويغلي ... ومما تجدر ملاحظته أن الفنانين يصفون النغمات الحمراء والنغمات الضاربة الى الحمرة بأنها « نغمات حارة » .

وامتص العم مكسيم نفسا كبيرا من دخان غليونه ، وأحاط نفسه بسحب زرقاء ، وأردف يقول :

ـ اذا حركت ذراعك حول رأسك ، رسمت نصف دائرة . فلنتصور الآن أن ذراعك طويلة الى غير نهاية ، فاذا استطعت أن تحرك هذه الذراع الطويلة الطويلة ، رسمت نصف دائرة في الفضاوات اللا متناهية . هكذا نحن نرى قبة السماء ، لانهاية لها ، زرقاء ، صافية . ونحن حين نراها كذلك تمتليء نفوسنا باحساس من الصفاء والطمأنينة والهدوء . ولكن حين تغشى السحب السماء ، فان هذا الصفاء في نفوسنا يعتكر ، ونشعر عندئذ بشيء غامض من الاضطراب . أنت تحس باقتراب العاصفة ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، أشعر عندئذ باحساس غريب ، أشعر كأن شيئا يهصر قلبي .

ـ صحيح . ونحن ننتظر بصبر فارغ ظهور الزرقة اللازوردية من وراء السحب مرة أخرى . فمتى انتهت العاصفة ، عادت الى السماء ألوانها . ونحن نعرف ذلك ، ومن اجل هذا ننتظر نهاية العاصفة هادئين . اذن فالسماء زرقاء ، والبحر أزرق أيضا حين يكون ساكنا . وأمك عيناها زرقاوان ، وايفلين كذلك ...

ـ كالسماء ...

قال الأعمى ذلك وقد استيقظت عاطفته الرقيقة فجأة .

ـ كالسماء ، تماما . العينان الزرقاوان علامة نفس هادئة مطمئنة . والآن ، هل تريد أن أقول لك كلمتين في اللون الأخضر؟ ان الأرض ،

Twitter: @ketab_n

سوداء . وجذوع الأشجار في الشتاء سوداء أو شهباء ضاربة الى السواد ، ولكن متى أخذت أشعة الشمس الصافية الحارة تدفي الأرض القاتمة ، أخذت تنبت أعشاب خضراء ، وأوراق خضراء . ان الخضرة في حاجة الى ضوء والى حرارة ، ولكن بنسب معتدلة . لذلك كانت الخضرة تسر النظر . فهي كالحرارة الممتزجة بطراوة رطبة ، توقظ في النفس صور الفرح الهادئ والعافية ، ولكنها لاتوقظ صور الأهواء الجامحة وما يسميه الناس بالسعادة . هل فهمت ؟

ـ ل ... لا . ليس هذا واضحا كل الوضوح . ولكن لابأس، أكمل كلامك .

ـ نعم ... أكمل كلامي . فاذا أصبح الصيف شديد القيظ ، بدا كأن الخضرة ترزح تحت فيض طافح من القوى الحيوية ،فأوراق الأشجار تتدلى واهنة وانية ، واذا لم تعتدل الحرارة بطراوة المطر ، كان من الممكن أن تذبل الخضرة ذبولا تاما . ولكن عند الخريف تنضج الثمار المختبئة بين الأوراق المتعبة ، وتصبح حمراء كالقرمز . وهي تحمر خاصة في الجهة التي تعرضت للنور أكثر من غيرها . فكأن قوة الحياة كلها قد تركزت هنا لك، كأن وهج النبات كله قد تجمع هناك . وهاءنت ترى اذن أن الحمرة ، هنا ايضا ، هي لون الهوى ، هي رمز الهوى . انها لون النشوة ، والخطيئة ، والهياج ، والغضب ، والثأر . وفي اثناء الثورات ، يحاول الشعب أن يعبر عن عواطف الجميع بالراية الحمراء تخفق فوق الرءوس ، كأنها لسان من اللهب ... ألم تفهمني أكثر ؟

ـ لابأس ... كمل .

ـ وتجيء الأيام الأخيرة من الخريف . لقد ثقل الثمر ، فهاهو ذا ينفصل عن أغصانه ، ويسقط على الأرض ناضجا . انه يموت . ولكن بذرة تحيا فيه ، وهذه البذرة تضم في أرحامها كل الشجرة

Twitter: @ketab_n

المقبلة ، بأوراقها الكثيفة وثمرها الجديد • تسقط البذرة في الأرض • والأرض تضيئها الآن أشعة مائلة من شمس لا حرارة لها ، وهذه رياح باردة تهب على الارض ، وهذه سحب باردة تزدحم في سماء باردة • لا الهوى وحده يتخدر الآن ، بل الحياة نفسها تتخدر شيئا فشيئا • فاذا التراب يظهر من تحت الخضرة بلون أسود ، بلون أسود أسود ••• والسماء تصطبغ بألوان باردة • ثم يأتي يوم تتغطى فيه هذه الأرض المذعنة الحزينة ، كأرملة ، بملايين سبائخ الثلج••• فتصبح عندئذ رتيبة ، باردة ، و ••• بيضاء • ان البياض هو لون الثلج البارد ، وهو لون السحب البعيدة عن الأرض ، التي تتموج في برودة السماوات لا يمكن الوصول اليها ، وهو الذرى الجليلة القاحلة • انه شعار الهدوء الذي لاتعكره الأهواء ، شعار القداسة المنيعة الباردة ، شعار الحياة الآخرة • أما اللون الأسود •••

هنا قاطعه الأعمى يقول :

ـ أعرف ، أعرف ••• هو ••• حين لا يكون هناك لاأصوات ولا حركات • هو الليل •

ـ نعم ، يابني ، هو شعار الحزن والموت •

فارتعش بطرس ، وقال بصوت بهيم :

ـ قلتها أنت نفسك : هو شعار الموت • وأنا كل شيء عندي أسود ••• السواد من حولي في كل زمان ومكان •

فأجاب العم مكسيم بقسوة :

ـ غير صحيح ! هناك أشياء كثيرة جميلة بالنسبة اليك : هناك الأصوات ، والحرارة ، والحركة •••• وهناك الحب يحيط بك من كل جانب • كثير من الناس يمكن أن يضحوا بنور أعينهم ، من أجل الحصول على ما تحتقره أنت ، أيها المجنون • انك تعرض شقاءك في كثير من الأنانية المفرطة •

Twitter: @ketab_n

فصاح بطرس في كثير من الحدة :

ـ نعم ، أعرضه رغما عني ، كما تقول • وكيف أهرب منه وهو حاضر دائما ؟

ـ ولكن ليتك تعلم أن الحياة تتقيأ شقاوات أرهب مائة مرة ، الف مرة ، من شقائك أنت ، وأن عليك ، أنت الذي عصمت من الهموم ونعمت بهذا العطف كله ، أن تعد نفسك سعيدا بالقياس الى تلك الشقاوات •

فقاطعه الأعمى يقول غاضبا ، بتلك الحماسة الجامحة نفسها في الصوت :

ـ خطأ ••• خطأ • انني لأتمنى أن أتبادل المصير مع أشقى شحاذ متسول • فالشحاذ المتسول أسعد مني كثيرا • ثم ان الأعمى يجب أن لا يحاط بأنواع من العناية ، وألوان من الرعاية•ذلك خطأ كبير • يجب أن يؤخذ العميان الى قارعة الطريق ، وأن يتركوا هنالك يتسولون ويطلبون الصدقات ! ولو كنت متسولا ، لكنت أقل شقاء ، ما في ذلك ريب • اذ لا يكون لي من هم ، منذ استيقظ في الصباح ، الا أن أؤمن لنفسي طعام الغداء ، واذا عددت ما في كيسي من نقود ، خشيت أن لاأجد فيه ما يكفيني لطعام الغداء • فاذا حصلت على صدقة سرني ذلك ، ولا يكون لي من هم بعد الظهر الا أن أستعطي الناس لليل • لسوف أتألم عندئذ من البرد ومن الجوع ، ولن يكون في وقتي دقيقة من فراغ ••• و ••• وستعذبني صفوف الحرمان تعذيبا دون عذابي الآن •••

ـ هل تعتقد ذلك ؟

قال العم مكسيم هذا ، بلهجة فاترة ، ونظر الى ايفلين • ان في نظرته هذه شيئا من الشعور بالعطف والشفقة • وكانت الفتاة ممتقعة اللون ، صارمة الأسارير •

Twitter: @ketab_n

أجاب بطرس يقول في عناد وقسوة :

ـ نعم • اني لأحسد الآن ييجور الذي يعيش هنالك ، في برج الأجراس • كثيرا ما أتذكره ، حين استيقظ في الفجر ، ولا سيما حين يكون الثلج عاصفا مهلكا في الخارج ، انني أتذكره عندئذ ، وأتخيله وهو يصعد البرج •

فاردف العم مكسيم يقول متمما :

ـ حيث يتجلد •••

ـ نعم حيث يتجلد ، ويسعل ••• ويشتم الأب بامفيل الذي لايريد أن يشتري له فروة • ثم يمسك الحبال بأصابعه الصقعـــة ، ويقرع الأجراس لصلاة الصباح • فلعله ينسى عندئذ انه أعمى • ذلك لأن كل من يذوق البرد هناك ، لا الأعمى وحده ••• أما أنا فلا أنسى أبدا ، و •••

ـ وأنت ليس هناك أحد تشتمه !

ـ نعم هو ذاك ••• ليس هناك أحد أشتمه • حياتي كلهـا مليئة بعماي • ولا ذنب لأحد في هذا ، ولكنني أشقى من أي شحاذ متسول على وجه الأرض •

قال العجوز بلهجة باردة :

ـ لا أريد أن أناقشك ••• وقد تكون على حق • ومهما يكن من أمر ، لو كانت حياتك أسوأ مما هي الآن ، لكنت أحسن ممـا أنت الآن •

وألقى على الفتاة نظـــرة أخرى تفيض بالعطف ، وخرج من الغرفة بين قرقعة العكاكيز •

بعد هذا الحديث تفاقمت حالة بطرس النفسية ، فكان يمعن في تحليل ذاته ، ويزداد بذلك شقاء •

وكان يصل في بعض الأحيان الى ما يبحث عنه : كان في بعض

Twitter: @ketab_n

اللحظات ، يشعر بتلك الاحساسات التي حدثه عنها العم مكسيم ، فتنضاف هذه الاحساسات الى ما توافر له من تصور لمعاني المكان •ان الأرض تمتد حزينة مظلمة الى آفاق بعيدة بعيدة تغيب فيها • وكان بطرس يريد أن يقيسها ، ولكنه لا يستطيع ••• وهذا رعد مصـــم يتدحرج مدويا في ذاكرته ، فيهب له احساسا بالمكان وفضاءات السماء الواسعة الواسعة • ثم يسكن الرعد ••• ولكن يبقى هناك في الأعالي، في السماء ، شيء يولد في النفس شعورا بالجلال والعظمة ، بالهدوء والطمأنينة ••• وتتضح هذه المشاعر أحيانا وتتعين : ان صوت أمه ، وصوت ايفلين ••• اللتين « عيناهما زرقاوان كالسماء » ، يمتزجان بهذه المشاعر • ولكن هذه الصورة التي نبعت من أعماق خياله وكادت تتعين تماما ، ما تلبث أن تغيب على حين فجأة ، لتنتقل الى ميـــادين أخرى •

كانت هذه التصورات الغامضة كلها تعذبه ، ولا تهب له شيئا من الرضى والطمأنينة • لقد كانت تقتضيه جهودا جبارة ، وكانت من شدة غموضها تولد في نفسه سخطا متصلا ••• وكان هنالك عـذاب أصم يرافق جميع تلك الجهود التي تبذلها نفسه المريضة ، الباحثة عبثا عن استدراك كمال احساساتها •



جاء الربيع •

على بعد ستين فرسخا تقريبا من قصر أسرة بوبلسكي في عكس اتجاه مزرعة أسرة ستافروتشنكو ، تقع مدينة صغيرة جدا فيها أيقونة كاثوليكية شهيرة • والخبراء في شئون هذه الأيقونة قد قاسوا على وجه الدقة مقدار المعجزات التي تستطيعها مزايا هذه الأيقونة ، فهم

Twitter: @ketab_n

يقولون ان كل من يجيء لرؤية هذه الأيقونة سيرا على الأقدام في يوم عيدها يغفر الله له من ذنبه « عشرين يوما » ، أي أن جميع الذنوب التي اقترفها خلال عشرين يوما ، تمحى فلا يحاسب عليها في اليوم الآخر • لذلك فان هذه المدينة الريفية الصغيرة تعج بالناس حتى ليتغير وجهها ، في يوم معين من السنة عند مطلع الربيع ، يوم معين معروف في جميع البلاد • وكانت الكنيسة الصغيرة القديمة تزدان للعيد بالخضرة الأولى وبأزهار الربيع ، والهواء يمتلئ بالرنين الأحمر ينطلق من الأجراس الفرحة ، وعربات الأعيان تجري مقرقعة في الشوارع ، وجماهير الحجاج تعسكر في الساحات ، والشوارع ، وحتى في الحقول خارج المدينة • ولم يكن يجيء الكاثوليك وحدهم فان مجد الأيقونة كان يدوي في البلاد كلها ، فيجتذب اليها كثيرا من الأرثوذكس المتألمين المحزونين ، من سكان المدن في أغلب الأحوال •

وكان المؤمنون يصطفون في يوم العيد ، على جهتي الكنيسة ، صفا طويلا مبرقشا لا نهاية له • ولاشك أن الذي يتأمل هذا المنظر الملون من احدى الروابي المحيطة بالضيعة ، يتراءى له أنه أمام حية كبيرة تمددت على الطريق قرب الكنيسة ، وسكنت لايتحرك منها الا أسفاطها الكابية المتعددة الألوان ، من حين الى حين • وعلى ضفتي الطريق التي يحتلها الحجاج ، رابط عدد كبير من الشحاذين ، مدوا أيديهم يطلبون الصدقات •

كان العم مكسيم على عكازيه ، والى جانبيه بطرس ويوكيم ، يسيرون ببطء ، متماسكي الأيدي ، في الشارع الذي يجتاز المدينة من أقصاها الى أقصاها ، ويؤدي الى الحقول •

ان جلبة الجمهور المتنوعة ، وصرخات البائعين اليهود الحادة ، وقرقعة العربات ••• هذه الضجة كلها قد خلفوها وراءهم ، فلا يسمعونها الا خليطا من هدير لاينقطع ، يتدحرج كموجة كبيرة •

Twitter: @ketab_n

ولكن ، حتى هنا ، رغم أن الجمهور أقل كثافة ، كان يسمع وقع أقدام المارة ، وصريف العجلات ، وضجيج الكلام • ان طابورا كاملا من عربات الفلاحين يصل من الريف ، وينعطف ثقيلا مقرقعا في شارع صغير قريب •

كان بطرس يتبع العم مكسيم ، ولا يلتفت بانتباهه الا قليلا الى هذه الحياة التي تتحرك من حوله • وكان لا ينفك يلم معطفه على صدره ، من شدة البرد ، ويواصل اثناء ذلك تحريك أفكاره السوداء في رأسه •

ولكن ، فجأة ، في وسط تجمعه الأناني هذا على نفسه ، باغته شيء ارتعش له ، ووقف جامدا في مكانه •

ان البيوت الأخيرة من المدينة تنتهي هنا • وثمة طريق واسع يمتد بين عدد كبير من الأسيجة والاراضي البور • وعند طرف الحقول نصبت يد تقية في الماضي عمودا من الحجر ، عليه أيقونة وشمعة ، ولكن الشمعة لم تشتعل يوما ، فهي تكتفي بالصريف عند هبوب الريح • عند قاعدة هذا العمود تجمع عددمن الشحاذين العميان الذين صدهم منافسوهم المبصرون ، وأبعدوهم عن الساحات التي هي أوفر خيرا وأوسع ربحا • كان العميان جالسين على الأرض ، وقد أمسكوا بأيديهم طاسات من الخشب ، وكان واحد منهم يأخذ يغني أغنية شاكية من حين الى حين •

ـ صـ •• د •• قة لـ •• عميا •• ن المسا . . كين . . لله • ليسوع المسيح •

كان النهار باردا ، وكان الشحاذون المرابطون في أماكنهم منذ الصباح معرضين لريح عاتية تصل اليهم من الحقول •انهم لا يستطيعون التجول بين الناس طلبا للاستفادة قليلا ، وفي أصواتهم التي ترنل على التناوب أغنية رتيبة يترجع صدى آلامهم الجسمية وخذلانهم شاكيا

Twitter: @ketab_n

حزينا ، واذا كانت الأصوات الأولى التي يرددها أحـــدهم في أول الأمر تسمع واضحة ، فسرعان ما يستحيل الترتيل الى دمعة شاكية ، تنطلق من صدر منقبض ، وتفنى في قشعريرة برد • ومع ذلك فحتى الأصوات الأخيرة الضعيفة من الأغنية التي تكاد تفنى في جلبة الشارع، كانت اذ تصل الى الأذن تفاجيءُ المرء بشدة ما يحتبس فيهـا من ألم مر •

توقف بطرس ، وتشنج وجهه فجأة كأن شبحا سمعيا قــــد انبجس أمامه في صورة هذا الأنين الذي يفيض بغم لاسبيل الى وصفه•

قال العم :

ـ لم أنت خائف ؟ انهم أولئك المحظوظون الذي كنت تحسدهم منذ مدة قصيرة ، انهم شحاذون عميان يطلبون الصدقة • ولئن كان صحيحا أنهم يحسون شيئا من البرد ، فخليق بذلك أن يجعلهم أكثر سعادة ، كما سبق لك أن قلت •••

فصاح بطرس وهو يمسك بيد العم مكسيم :

ـ دعونا نمر •••

ـ ها ••• تريد أن تتجاوز هذا الموضوع ! أمام شقاء الآخرين لا يتحرك قلبك بغير هذا • ولكن انتظر قليلا ، أرجوك • أريد أن أصارحك جادا ، ويسعدني أن أفعل ذلك الآن ، في هذاالمكان نفسه• أنت تشكو دائما من أن الزمان قد تغير ، وأن العمي لا يقتلون اليوم في معارك ليلية ، كما وقع لعازف الباندورا يوركو • ويغيظك أنك لاتجد موضوعا لملامة الناس وشتمهم ، وأنت في الوقت نفسه تسب أهلك بينك وبين نفسك ، وتتهمهم بأنهم حرموك من النعم التي يتمتع بها هؤلاء العميان • يمينا ، لقد تكون على حق • نعم ، أقسم بشرفي كجندي قديم ، أن لكل انسان كامل الحق في أن يتصرف بحظـــه على النحو الذي يحب • ولقد أصبحت رجلا ••• على كل حال •

Twitter: @ketab_n

اسمع اذن ما سأقوله لك : اذا كنت تريد أن تتدارك أخطاءنا كلها ، اذا كنت تريد أن تصفع وجه القدر بجميع النعم التي أحاطتك بها الحياة منذ طفولتك الأولى ، فقل لي ذلك صراحة ، وعندئذ ، فانني أعدك ، أنا مكسيم ياتسنكو ، بتقديري واحترامي ومساعدتي ومساندتي • هل تسمعني جيدا ، يا بطرس ؟ حين رميت نفسي في المعمعة كنت لا أكبرك كثيرا في السن •• وكما ستفعل أمك الآن ، فعلت أمي ••• بكت بدموع سخينة حين سافرت ! ولكنني كنت أعتقد أن من حقي أن أسلك في الحياة الطريق التي أريد ، مثلك تماما الآن • مرة في هذه الحياة ، يقترب القدر من الانسان ويقول له : اختر • اذن فليس عليك الآن الا أن تقول كلمة واحدة !

قال العم مكسيم ذلك ، ثم التفت الى العميان ، وصاح :

ـ فيدور كانديبا ، أأنت هنا ؟

فانفصل عن الجوقة الخناء صوت يجيب :

ـ طبعا ، أنا هنا • هل مكسيم ميخائيلوفتش هو الذي يناديني ؟

ـ نعم ، أنا أناديك • هل لك أن تأتي بعد ثمانية أيام الى المكان الذي ذكرته لك ؟

ـ سآتي ، يا سيدي سآتي حتما •

ثم اندمج صوت الأعمى مرة أخرى في أصوات أفراد الجوقه ، رفاقه •

قال العم مكسيم ، وقد التمعت عيناه :

ـ حسنا • سترى رجلا يحق له أن يشكو من حظـــه ومن الناس • تعلم منه كيف يجب تحمل الأقدار ••• أما أنت ••

وهنا قال يوكيم وهو يرشق العجوز الأبتر بنظرة خانقة :

ـ هيا بنا ، ياسيدي الشاب •

فصرخ العم مكسيم غاضبا يقول :

Twitter: @ketab_n

ـ قفا ! لا يمر أحد أمام العميان دون أن يتصدق عليهم بشيء.
هل يمكن أن تهرب من هنا حتى دون أن تقوم بهذا الواجب البسيط ؟

انك لا تجيد الا التجديف ، أنت أيها الشبعان الذي يحسد الجائعين .

فرفع بطرس رأسه ، كأن سوطا صفعه . ثم سحب دراهمه من جيبه ، وسار الى العميان ، وتلمس بعصاه أول واحد منهم ،فوجد في يده طاسة الخشب وفيها بضع قطع من النقود النحاسية ، فوضع في الطاسة دراهمه . وتوقف بعض المارة ينظرون دهشين الى هذا الشاب الثري الجميل الأنيق الذي يعطي صدقته تلمسا ، فيتناولها منه الأعمى تلمسا أيضا .

وفي أثناء ذلك ، استدار العم مكسيم فجأة ، ومضى في الشارع يعرج . كان وجهه متوقدا كالجمر ، وكانت عيناه تلتمعان . كان يعاني فورة من الغضب يعرفها كل من رآه في شبابه . ليس هو الآن عالما من علماء التربية يزن كل كلمة من كلماته قبل أن يقولها ، وانما هو انسان عنيف استسلم لغضبه.ولكنه بعد أن ألقى على بطرس نظرة مختلفة ، هدأ غضبه ، ورقت عاطفته ، كان بطرس شاحب اللون كأنه الثلج بياضا ، ولكن حاجبيه مقطبان ، ووجهه مضطرب ، ينم عن انفعال عميق .

وهبت ريح أثارت الغبار . وسمعوا وراءهم صياحا وشجارا يقوم بين العميان بسبب الدراهم التي أعطاها بطرس .

٩

استيقظ بطرس في صباح الغد مريضا ، مصابا بحمى عصبية ، لا ندري هل كان ذلك بسبب برد ألم به ، أو بسبب أزمة نفسية ،أو

Twitter: @ketab_n

بسبب الأمرين معا • كان متشنج الوجه ، يضطرب في سريره بلا انقطاع ، ويرهف سمعه من حين الى حين ، ويبدو على وجهه أنه يريد أن يركض الى مكان ما • وقد جس الطبيب العجوز في القرية الصغيرة نبض المريض ، وأخذ يتحدث عن برد الخريف • وكان العم مكسيم يقطب حاجبيه ، ويتحاشى أن ينظر الى أخته •

لقد بدأ المرض قويا جدا ، وحين جاءت النوبة الشديدة ، ظل المريض خلال عدة أيام متوالية بلا حراك تقريبا • وأخيرا أخـــذ الجسم الشاب يتغلب على المرض •

وفي صباح شامس من أصباح الخريف ، دخل الى الغرفة شعاع ساطع من أشعة الشمس ، فسقط على وسادة المريض • ولا حظت آنا ميخائيلوفنا ذلك ، فقالت تخاطب ايفلين :

ـ أسدلي الستارة ، فانني أخاف هذا النور كثيرا •

فنهضت الفتاة تريد أن تنفذ الأمر ، ولكن صوت الشاب ارتفع لأول مرة يوقفها قائلا :

ـ لا ، لا ••• هكذا أحسن ••• أرجوكم •• دعوا الستارة هكذا ••

فانحنت المرأتان عليه فرحتين، وقالت الأم :

ـ أتسمعني يابني ؟ أنا هنا ، أمك ، بالقرب منك •

فقال بطرس :

ـ نعم

وصمت كأنه يحاول أن يتذكر شيئا •

ثم قال بهدوء ، وهو يتحرك لينهض :

ـ ها ••• نعم • قولوا ••• هل جاء ذلك الرجل ، فيدور ؟

فتبادلت المرأتان النظرات ، وغطت الأم فم ابنها بيدها :

ـ أسكت ••• أسكت ••• لاتتكلم في هذا ، لأنه يؤذيك ••

Twitter: @ketab_n

فشد بطرس يد أمه الى شفتيه يغرقها بالقبل وتدفقت من عينيه دموع • وبكى طويلا • فهدأه البكاء •

وظل عدة أيام هادئا مفكرا ، ولكن تعبيرا عن القلق كان يظهر في وجهه كلما مر العم مكسيم أمام غرفته • ولاحظت المرأتان ذلك ، فتوسلتا الى الأبتر أن يظل بعيدا الى حين • ولكن في ذات يوم طلب اليهما بطرس نفسه ، أن تناديا العم مكسيم ، وأن تتركاهما في خلوة •

فلما دخل العم مكسيم الى الغرفة ، تناول يد المريض ، وأخذ يداعبها في كثير من الرقة والحنان • وقال :

ـ هيه ••• يابني •• يخيل الي أنني في هذه المرة يجب أن أعتذر اليك •

فقال بطرس بصوت خافت ، وهو يشد على يد العجوز :

ـ أنا أفهم•••لقد لقنتني درسا،وأنا أشكرلكهذا الدرسأجزل الشكر •

فهتف العم مكسيم ، وهو يحرك يده بحركة من نفاد الصبر ، قائلا :

ـ هوه ••• دعنا من الدروس • ان المرء اذا ظـــل من علماء التربية مدة طويلة ، يصبح غبيا • لا لا ، انني في تلك المرة لم أفكر في تلقينك أي درس ، ولكنني كنت غاضبا لا أكثر ، غاضبا عليك وعلى نفسي •••

ـ اذن كنت تريد حقا أن •••

ـ كنت أريد ذلك حقا ، كنت أريده ! من يعرف ماذا يريد انسان حين يكون في غضب شديد ؟ لقـــد أردت أن تشعر بأحزان غيرك ، فتكف عن المبالغة في تقدير أحزانك ! هذا ما أردته !

وصمت الاثنان •

ثم قال بطرس بعد لحظة :

Twitter: @ketab_n

ـ تلك الأغنية ••• كنت أتذكرها حتى أثناء الهذيان • ولكن قل لي ، من هو فيدور ذاك الذي دعوته الى المجيء الينا ؟

ـ هو فيدور كانديبا ••• شخص أعرفه منذ ماض بعيد •

ـ أهو أيضا ••• أعمى منذ الولادة •

ـ بل هو شر من ذلك ••• لقد احترقت عيناه أثناء الحرب •

ـ وهو يتجول في الدنيا يغني هذه الأغنية ؟

ـ نعم • وهو يعيل عشا برمته من اليتامى أبناء أخته • وأكثر من ذلك أنه يجد لكل منهم كلمة تضحكه ، مزحة تسليه •

فقال بطرس حالما :

ـ صحيح ؟ قل ما تشاء ، ولكن هناك سرا • أنا أيضا ، أود لو •••

ـ ماذا تود يابني ؟

بعد ربع ساعة سمع وقع أقدام ، ودخلت آنا ميخائيلوفنا الى الغرفة ، وأخذت تتفرس قلقة في الرجلين اللذين كانا يتحدثان منفعلين فلما دخلت صمتا عن الحديث فجأة •

حين غلب المرض ، استطاع الجسم الفتي أن يطرد آخر آثاره بسرعة • فما انقضى خمسة عشر يوما ، حتى كان بطرس يقف على قدميه •

لقد تغير بطرس كثيرا ، حتى أن ملامح وجهه تبدلت• فأصبحت نوبات الألم العنيف لاترى فيه • انه بعد تلك الهزة النفسية غارق في أحلام هادئة ، وحزن لا حدة فيه •

وكان العم مكسيم يخشى أن لا يكون ذلك الا تبدلا موقتا ، يرجع الى ضعف التوتر العصبي أثناء المرض • وفي ذات يوم ، عند الغسق ، اقترب بطرس من البيانو لأول مرة بعد أن أبل من مرضه ، وأخذ يرتجل بعض الألحان على عادته • كانت الألحان هادئة حزينة

Twitter: @ketab_n

كمزاجه • ولكن ها هي ذي النغمات الأولى من أغنية العميان تنبجس على غير انتظار في قلب الأصوات المبللة بكآبة ناعمة عذبة • وصمت اللحن فجأة • ونهض بطرس عن البيانو نهوضا سريعا ، وقد فاضت عيناه بالدموع • كان وجهه مضطربا أشد الاضطراب • كان واضحا أنه لا يستطيع التخلص من ذلك الأثر القوي الذي خلفه في نفسه ظلم الحياة ، وتجلى له في صورة هذه الشكوى الخناء الممزقة •

وفي ذلك المساء نفسه خلا العم مكسيم مرة أخرى ببطرس ، وأخذا يتكلمان • وانقضت عدة أسابيع ، وما يزال الأعمى على حالته النفسية تلك • كأن شعوره المفرط الأناني بشـــقائه الفردي ، ذلك الشعور الذي كان يلجمه عن العمل ، ويعقل مافيه من حيوية فطريه، قد ترنح الآن ، وحل محله شيء آخر • لقد أخذ ، من جديد ، يضع بعض الخطط ، ويستهدف بعض الغايات • كانت الحياة تنبعث فيه مرة أخرى ، وكانت نفسه التي أوشكت أن تتحطم تبرأ الآن مما بها ، كشجيرة يابسة أنعشتها نسمة من الربيع تحيي بعد موت •

وتقرر ، فيما تقرر ، أن يسافر بطرس في الصيف المقبل الى كييف ، كي يبدأ في الخريف دراسته على يد واحد من أشهر العازفين على البيانو • وأصر هو والعم مكسيم أن يسافرا وحدهما •

١٠

في مساء فاتر من أماسي تموز ، توقفت في عرض الحقول عند طرف غابة ، طوال الليل ، عربة صغيرة (بريسكا) يجرها حصانان • وفي صباح الغد ، عند الفجر ، مر في الدرب الكبير أعميان يتلويان جنبا الى جنب • كان أحدهما يدير مقبض آلة موسيقيـــة بدائية ، تتألف من اسطوانة خشبية تدور في فتحة صندوق أجوف ، فتلامس أوتارا مشدودة شدا قويا • فتخرج من الآلة دندنة رتيبة

Twitter: @ketab_n

حزينة • وكان عجوز ، ذو صوت بهيم ولكنه جميل ، يغني صلاة الصباح •

ورأى الباعة المتجولون الذين مروا في هذه الطريق مع عرباتهم المحملة بالسمك المجفف ، رأوا السيدين المستلقين على بساط في عرض الحقل بالقرب من عربتهما الأنيقة ، يناديان الأعمين • وحين توقف هؤلاء الباعة بعد قليل على مقربة من بئر لترد بهائمهم الماء ، مر أمامهم الأعميان ، يصحبهما أعمى ثالث ، فهم الآن ثلاثة : أحدهم عجوز أشيب الشعر متهدل الشاربين ، يسير في المقدمة ، وهو يضرب الأرض بعصاه الطويلة • ان جبينه مغطى بندبات قديمة يظهر أنها آثار حرق ، وهو يحمل على كتفه بطانا عريضا مربوطا بحزام الأعمى الثاني الذي يسير وراءه • أما هذا الأعمى الثاني فهو رجل قوي البنية مجدور الملامح ، وقد خربت وجهه آثار الجدري تخريبا رهيبا • كان الاثنان يتقدمان بخطى متساوية مطردة ، وقد رفع كل منهما رأسه الى السماء كأنه يتلمس فيها طريقه • وأما الأعمى الثالث فهو شاب في ميعة الصبا يرتدي ملابس جديدة كل الجدة من ملابس الفلاحين ، أصفر الوجه ، مذعور قليلا • كانت خطواته متعثرة ، غير مطمئنة ، وكان يقف من حين الى حين ، ويصغي الى شيء وراءه ، ويمنع رفيقيه من التقدم في السير •

وفي نحو الساعة العاشرة من الصباح كانوا قد قطعوا مسافة طويلة • ان الغابة تبدو الآن عند الأفق شريطا أزرق غامضا • والسهوب حولهم من كل جهة • والهواء مفعم باهتزازات أسلاك التلغراف التي دفأتها الشمس ، والتي تحاذي الطريق المعبدة المتقاطعة مع الدرب الكبير الأغبر • وفيما كان العميان يخرجون الى الطريق المعبدة ، منعطفين نحو اليمين ، اذا بهم يسمعون وراءهم وقع حوافر خيل ، وقرقعة يابسة من عجلات تسير فوق الحصى ، فاصطفوا على

Twitter: @ketab_n

حافة الطريق وأخذت الأسطوانة الخشبية تدندن ، وأخذ صوت العجوز يغني :

– تصدقوا على العميان المساكين •

وكانت دندنة الاسطوانة تمتزج الآن بزغردة حلوة تخرج من أوتار بين أصابع الأعمى الفتى •

ورنت قطعة من النقد سقطت بين قدمي كانديبا العجوز • وكانت ضجة العجلات قد سكتت ، ووقف المارة ليعرفوا هل يعثر العميان على قطعة النقد • وسرعان ما عثر كانديبا عليها ، فعبرت أسارير وجهه فورا عن رضى كامل ، فقال متوجها نحو عربة صغيرة (بريسكا) يجلس فيها سيد أشيب ، الى جانبه عكازتان :

– الله يعطيك •

ونظر العجوز الأشيب الى الأعمى الشاب مليا • كان وجه هذا ما يزال شاحبا ، ولكنه هدأ قليلا • ومنذ بدأت الأغنية ، أخذت أصابعه تتراكض على الأوتار تراكضا عصبيا ، كأنها تحاول أن تلطف نبرات صوت الأعمى ما وسعها التلطيف ، اذ كانت تلك النبرات تميل الى العنف والقسوة • وتابعت العربة (البريسكا) طريقها ، ولكن العجوز التفت الى الوراء مدة طويلة •

وما لبثت ضجة العجلات أن اختفت في بعيد • فاصطف العميان، واستأنفوا المسير •

قال كانديبا :

– هل تعلم يا يوري أن يدك موفقة ، وأنك تعزف عزفا جيدا جدا •

وبعد بضعة دقائق سأل الأعمى الذي يسير في الوسط :

– نذرت أن تذهب الى بوتشاييف ؟ ••• هل هذا النذر لله ؟

فأجاب الفتى في رفق :

– نعم

Twitter: @ketab_n

فعاد الآخر يسأله وهو يبتسم ابتسامة مرة :

ـ من أجل أن يرد اليك بصرك ؟

فقال الأعمى العجوز بلهجة المصالحة :

ـ هذا يحدث أحيانا ...

فأجاب الأعمى العابس :

ـ اني أقطع البلادطولا وعرضا منذ مدة طويلة،ولم أصادف..

ثم تابعوا سيرهم صامتين . كانت الشمس تعلو في قبة السماء . وكان لا يرى الا خط الطريق المعبدة الأبيض ، مستقيما كالسهم ، وطيوف هؤلاء العميان الثلاثة ، ونقطة سوداء في الأفق البعيد ، هي عربة البريسكا التي مرت بهم منذ قليل . ثم تفرع الطريق ، فسارت العربة في اتجاه كييف ، بينما اتجه العميان الثلاثة في طريق مقاطعة للذهاب الى بوتشاييف .

بعد مدة قصيرة ، وصلت الى القصر رسالة من كييف تنبئ سكانه بأن كل شيء يسير على ما يرام . لقد كتب العم مكسيم يقول انهما كليهما في صحة جيدة،وان الأمور كلها دبرت على أحسن نحو.

وفي أثناء ذلك كان العميان الثلاثة يمعنون في سيرهم بعيدا . انهم الآن يتقدمون بخطى واحدة ، متساوية . كان كانديبا يسير في مقدمة الركب الصغير ، ضاربا الأرض بعصاه ، كما في السابق . انه يعرف جميع الطرقات كبيرها وصغيرها ، ويعرف كيف يصل الى القرى الكبيرة في أيام الأعياد والمعارض . وكانت هذه الجوقة الصغيرة تستهوي الجمهور ، وكانت القروش لا تنقطع عن الرنين في قبعة كانديبا .

وقد زالت معاني الاضطراب والذعر عن وجه الفتى منذ مدة طويلة ، وحلت محلها معان مختلفة عنها كل الاختلاف . في كل خطوة،كانت أصوات جديدة من عالم واسع مجهول تأتي فتحل في نفس الفتى

Twitter: @ketab_n

محل الهمهمة المتوانية المهدهدة التي في القصر الهادئ • انبسطت عيناه ، وأصبح صدره ينشق الهواء بمزيد من الحرية ، واشتدت حدة سمعه • كان يعرف رفيقيه بين جمهور الناس ، كانديبا الحليم الطيب أبدا ، وكوزما الذي تفيض نفسه بالحنق والمرارة • وكان يسير وراء عربات بائعي الملح وهي تقرقع ، وينام بالقرب من النار في السهوب ، ويصغي الى جلبة الأسواق والمعارض في القرى ، ويتعلم كيف يفهم شقاء المبصرين والعميان على السواء ، حتى لقد تفطر قلبه ألما من ذلك غير مرة • أمر غريب : ان في نفسه الآن متسعا لجميع هذه الاحساسات • وقد تمرس بغناء العميان وأتقنه ، ويوما بعد يوم ، أمام أصوات هذا البحر الخضم من الآلام الانسانية ، أخذ شوفه الى المستحيل يهدأ شيئا فشيئا • وكانت ذاكرته تحفظ كل أغنية جديدة وكل لحن جديد ، وحين كان يأخذ بالضرب على أوتار آلته أثناء الطريق ، كان وجه كوزما نفسه يعكس شيئا من هدوء النفس ورقة العاطفة • وكانت فرقة العميان تتكاثر كلما اقتربوا من بوتشاييف •

• • •

في يوم من أواخر أيام الخريف ، في الطـريق التي بدأت تغطيها الثلوج ، كان بطرس يسير بملابس شحاذ حقيقي ، مـــع أعميين آخرين ، عائدا الى القصر ، على دهشة عظيمة من جميـــع الناس • ويزعم بعضهم ان بطرس قد ذهب الى بوتشاييف ليبرأ من آفته بالأدعية والصلوات •

وظلت عيناه ، مع ذلك ، كما كانتا ، صافيتين عمياوين • الا أن نفسه قد أبلت ، من غير شك • فكأن حلما رهيبا ، كأن كابوسا ثقيلا ، غادر البيت الى غير رجعة • وحين عاد العم مكسيم أخيرا الى البيت ،

Twitter: @ketab_n

وكان لا يزال حتى ذلك الحين يبعث الرسائل المطمئنة من كييف ، استقبلته أخته ، وهي تسرع الى لقائه ، بهذه العبارة :

- لن أغفر لك هذا في حياتي !

ولكن كلماتها كانت لا تتفق وتعبير عينيها .

وظل بطرس سهرات برمتها يقص أخبار رحلته . وكان اذا جاء الغسق يعزف على البيانو ألحانا ما سمعها أحد من سكان البيت حتى ذلك الحين .

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

١

في ذلك الخريف نفسه أنبأت ايفلين أبويها أنها قررت قرارا لا ترجع عنه ، أن تتزوج « أعمى القصر » •

فأخذت أمها العجوز تبكي بكاء غزيرا ، أما أبوها العجوز ، ياسكولسكي ، فقد وقف يصلي أمام الأيقونة، حتى اذا فرغ من صلاته قال ان من رأيه أن هذه ارادة الله •

واحتفل بالزواج • ان سعادة فتية هادئة قد بدأت في حياة بطرس • ومع ذلك ، كان يعاني شيئا من القلق في قلب سعادته : كان في أهدأ اللحظات يبتسم ابتسامة تلوح فيها معاني شك خائف ، كأنه كان هو نفسه يعد سعادته شيئا يشبه أن يكون غير مشروع وغير مستقر • وحين أبلغ أنه ربما أصبح أبا ، تلقى النبأ بشيء من الذعر •

غير أن الحياة اليومية التي كانت تفرض عليه جهودا جدية وتحمله هموما تتعلق بامرأته وبولده المقبل كانت لا تدع له أن ينكفيء على نفسه يحللها ويمعن في تحليلها العقيم • وفي بعض اللحظات ، في قلب هذه الهموم ، كانت تستيقظ في نفسه ذكرى أنة العميان الشاكية، فكان يذهب عندئذ الى القرية التي تقع على طرفها عزبة فيدور كانديبا الجديدة ، فيتناول هذا « كوبزاه »،أو يغرق الاثنان في حديث طويل• لقد أصبحت أفكار بطرس تجري جريانا أهدأ ، وأصبحت خططه تتضح •

وأصبح الآن أقل أحساسا بتأثير النور ، وركن اضطرابه القديم•

Twitter: @ketab_n

نامت القوى الصاخبة في طبيعته ، وصار يحاول أن لا يوقظها ، ولا يوتر ارادته من أجل أن يضم احساسات مختلفة في كل واحد . لقد حلت محل هذه الجهود العقيمة ذكريات حية وآمال واقعية . ولكن من يدري؟لعل هذه الهدأة كانت تسهمفي العملالعضوي اللاشعوري، ولعل هذه الاحساسات المبهمة المتفرقة كان بعضها يشق الطريق الى بعضها الآخر . أليس يخلق دماغنا في الأحلام معاني وصورا ما كان له أن يوجدها بجهد الارادة ؟



في الغرفة نفسها التي ولد فيها بطرس ، كان يخيم صمت لا تقطعه الا أصوات بكاء طفل ولد منذ بضعة أيام . وكانت ايفلين تسترد قواها بعد الولادة بسرعة . ولكن بطرس كان يبدو خلال هذه الأيام كلها مرهقا من شر يتوجسه .

ووصل الطبيب . فتناول الطفل بين ذراعيه ، ووضعه بالقرب من النافذة . ثم أزاح الستارة بسرعة ، فدخلت الى الغرفة أشعة من الشمس ساطعة ، وانحنى على عيني الطفل ممسكا بيده أداة ضوئية . كان بطرس جالسا في تلك الغرفة نفسها ، خافض الرأس ، مرهقا ، لا يبالي بشيء ، وكان ، كمن يعرف النتيجة مقدما ، لا يهتم بفحص الطبيب أي اهتمام ، فيما يبدو . وكرر يقول :

ـ لا شك أنه أعمى ... كان يجب أن لا يولد .

ولم يجبه الطبيب الشاب ، بل استمر يلاحظ عيني الطفل . ثم وضع منظاره جانبا ، ودوى في الغرفة صوته الهادئ الواثق يقول :

ـ ان الحدقة تتوسع ، والطفل يبصر ، ما في ذلك ريب .

فارتعش بطرس ، وهب واقفا . ان هذه الحركة تدل على أنه

Twitter: @ketab_n

قد سمع كلام الطبيب ، ولكن كأن تعبير وجهه يدل على أنه لم يفهم معنى الكلام . وظل في مكانه ، مسندا يده المرتعشة الى النافذة ، رافعا وجهه الممتقع نحو السقف ، ساكنا لا يتحرك أبدا .

كان يشعر حتى تلك اللحظة باهتياج غير مألوف . حتى لكأنه لا يدرك وجوده ، وكانت أعصابه كلها تهتز مع ذلك وترتعش من نفاد الصبر .

كان يشعر بالظلمة التي تحيط به شعورا قويا ، كان يتعرفها ، كان يحسها في خارجه بكل سعتها . انها تقترب منه ، انه يعانقها بخياله ، كأنه يريد أن يقيس قوته بقوتها . انه يهب الى لقائها ، يريد أن يدرأ عن ابنه هذا الخضم من الظلمات الكثيفة .

تلك كانت حالته بينما كان الطبيب يقوم بأعمال التوليد ، بل لقد كان قلقا قبل ذلك أيضا ، قبل ولادة الطفل ، الا أن أشعة من أمل كانت لا تزال تحيا في نفسه . واليوم قد بلغ قلقه أقصى درجاته، كان قلقا رهيبا منهكا ، استولى استيلاء تاما على أعصابه المتوترة أعنف التوتر ، بينما كان الأمل لاطيا في غياهب قلبه يموت ... ثم اذا بهذه العبارة القصيرة : « الطفل يبصر ... » تقلب تلك الحالة النفسية رأسا على عقب . فيزول الخوف ، ويصبح الأمل يقينا ، يشد أزر الأعمى ويقوي روحه . هذا انقلاب ، هذا شعاع ينبجس كالبرق في ظلمات نفسه . خيل اليه أن كلمات الطبيب تترك في دماغه أثرا متوهجا كالنار .. ان شرارة قد انبعثت الآن في مكان ما من كيانه ، فأضاءت أعماقا مستسرة من جسمه ... ان كل شيء فيه أخذ يهتز ، وهو نفسه راح يهتز كوتر مشدود .

وبعد هذا الوميض ، اشتعلت أمام عينه ، فجأة ، أشباح غريبة ، انطفأت قبل أن تولد . انه لا يعرف على وجه اليقين أهي أشعة أم هي أصوات ! انها ، بالأحرى ، أصوات ، تحيا ، وتكتسي أشكالا ، وتتحرك ، كأنها أشعة . انها تلتمع كصفحة السماء ... وتجري

Twitter: @ketab_n

كالشمس الساطعة في القبة الأثيرية • وان لها حفيفا ووشوشة ، كالسهوب الخضراء • وانها لتترنح مهتزة كأوراق أشجار الزان ،

تلك كانت اللحظة الأولى • وهذه التأثيرات المبهمة التي سقطت على نفسه في تلك اللحظة ، قد رسخت وحدها في ذاكرته • أما ما عداها ، فقد نسيه بعد ذلك • ولكنه ما انفك يؤكد أنه قد أبصر ، في تلك اللحظة •

ما الذي رآه ، كيف رآه ، هل رأى حقا ؟ كل ذلك ظل مجهولا • وطمأنه بعضهم الى أن ذلك مستحيل ، ولكنه كان يصر ويؤكد أنه قد أبصر السماء والأرض وأمه وامرأته والعم مكسيم •

قضى بطرس على تلك الحالة عدة ثوان ، مرفوع الرأس ، مشرق الوجه • كان منظره غريبا جدا ، فالتفت الجميع ، وصمتوا • خيل اليهم أن هذا الرجل الواقف في وسط الغرفة ليس ذلك الذي يعرفونه منذ سنين ، بل هو شخص لا يعرفونه • لقد غاب بطرس القديم ، ملفعا بسر أحاله شخصا آخر دفعة واحدة •

بقي وحده مع ذلك السر لحظات قصيرات • ثم لم يبق من السر بعد ذلك الا شعور بالرضى ، وايمان غريب بأنه قد استطاع في تلك اللحظة أن يبصر •

هل كان ذلك ممكنا ؟

هل كان يمكن أن تلك الاحساسات الغامضة المبهمة بالضوء ، التي كانت تبحث عن طريقها الى دماغه المعتم حين كان يختلج للقاء الشمس ـ قد انبجست في دماغه في لحظة من نشوة مفاجئة ، كمسودة صورة فوتوغرافية تنتشر غامضة مبهمة ؟

لقد رأى بعينيه العمياوين السماء الزرقاء والشمس الساطعة ، والنهر الرائق ، والرابية الصغيرة ، حيث شعر بكثير من الاحساسات الجميلة ، وحيث بكى كثيرا ابان طفولته ••• ثم الطاحون ، والليالي ذات النجوم التي حملت اليه كثيرا من العذاب ، والقمر الصامت

Twitter: @ketab_n

الحزين ... والدرب الكبير الأغبر ، والطريق المعبدة ، وعربات الحمل ذات الدواليب المحاطة بالحديد ، والجمهور المبرقش الذي كان يغني له ترنيمة العميان ...

لقد نهض في دماغه سرب من الصور العجيبة :جبال ووديان لا يعرفها ، وأشجار خارقة تتأرجح فوق أنهار مجهولة ، وشمس تغرق بضيائها الرائع هذه اللوحة كلها ... تلك الشمس نفسها التي أعجبت بها أجيال من الأسلاف لا حصر لعددها .

لعل هذا كلهقد اضطرب في أعماقنفسه احساسات ليست بذات شكل ، في أعماق نفسه ، حيث تستحيل الألوان والأصوات جميعا ، على رأي العم مكسيم ، مرحا أو كآبة ، فرحا أو غما .

وفيما بعد ، كان بطرس لا يتذكر الا اللحن المنسجم الذي دوى في نفسه لحظة من الزمن ، ذلك اللحن الذي تلاقت فيه تأثرات حياته جميعها ، احساساته بالطبيعة وحبه الحي .

من يدري ؟

كان لا يتذكر الا شيئا واحدا ـ هو تلك اللحظة التي مسه فيها السر ثم تركه . في تلك اللحظة ، تلاقت « الرؤى الأصوات » ، واختلطت ترن وتهتز ، ترتعش وتنطفيء ، كما يرتعش وينطفيء صوت وتر .

ظلام دامس ، وصمت ساكن ... ان أشباحا غامضة تحاول الى الآن أن تحيا مرة أخرى في غياهب الظلمات ، ولكن ليس لها شكل ، ولا صبغ ، ولا لون ... لا شيء الا أصوات ترن ، هنالك ، تحت ، في بعيد ، واضحة مدوية ، تمزق الظلام الكثيف ، ثم تهوى ، بدورها ، الى الهاوية ...

في تلك اللحظة ، وصلت الأصوات الخارجية الى مسامع بطرس في صورتها العادية . فلاح عليه أنه يستيقظ من نوم ، ولكنه ظل

Twitter: @ketab_n

واقفا في مكانه ، مشعا ، سعيدا ، يصافح أمه والعم مكسيم •

ـ ما بك يا بني ؟

هكذا سألته آنا ميخائيلوفنا ، بصوت يفيض قلقا •

ـ لا شيء ••• ولكن يخيل الي أنني ••• أنني رأيتكم جميعا ••• أنا لست نائما ، أليس كذلك ؟

فسألته الأم ، وهي ما تزال منفعلة :

ـ والآن ؟ هل تتذكر ذلك الآن ؟ هل تستطيع أن تتذكر ؟

فزفر الأعمى زفرة عميقة ، وأجاب أخيرا في جهد :

ـ لا ••• ولكن لا بأس ، لأنني وهبت ذلك كله ••• له ••• للطفل ، ولكم جميعا •

ثم ترنح ، وسقط مغشيا عليه • كان وجهه ممتقعا ، ولكنه ما يزال يحتفظ بمعاني طمأنينة فرحة •

Twitter: @ketab_n

خـــاتمة

انقضت ثلاث سنين •

ان جمهورا غفيرا ممن اجتذبتهم « العقود » الى كييف ، ذاهبون الى حفلة موسيقية يحيها موسيقي أصيل جدا •

ان الموسيقي أعمى ، ولكن يقال ان موهبته الموسيقية فذة بين المواهب ، وانه عاش حياة خارقة • يشاع ان عصابة من العميان سرقته أثناء طفولته من أسرة غنية ، وأنه ظل يتشرد مع العميان هنا وهناك ، الى أن وقع عليه أستاذ شهير من أساتذة الموسيقى ، فبهرته موهبته •

ويؤكد آخرون أنه قد هجر أسرته بمحض ارادته ، والتحق بالعميان ، تدفعه الى ذلك نزوة رومانسية صرفة • ومهما يكن من أمر فقد كان المكان يغص بالناس ، وبلغ الريع الذي خصص لعمل من أعمال البر يجهله الجمهور ، مبلغا لم يسبق له مثيل •

كان صمت عميق يخيم في القاعة ، حين ظهر على المنصة شاب ذو وجه شاحب ، وعينين واسعتين جميلتين • وما كان لأحد أن يظن أنه أعمى ، لولا أن عينيه تخطفان البصر بجمودهما ، ولولا أن سيدة شابة شقراء كانت تقوده ، وهي زوجته ، فيما يقال •

قال ناقد حسود ، متوجها بالكلام الى جاره :

ـ لا عجب أن يؤثر في الناس هذا التأثير كله ، فان له مظهرا دراميا خارقا •

والحق أن هذا الوجه الشاحب ، الذي تلوح فيه معاني التفكير والجد ، وهاتين العينين الجامدتين ، وهذا المظهر الجميل كله ، كل

Twitter: @ketab_n

هذا يعد بشيء فذ فريد غير مألوف •

ان الجمهور الأكراني يحب ، على وجه العموم ، أغانيه الشعبية ويقدرها ، ولكن حتى هذا الحشد المتنوع الذي جمعته « العقود » قد تأثر فورا بعمق التعبير الموسيقي وبصدقة • ان الاحساس الحي بالبلاد التي نشأ فيها الأعمى وترعرع، وكذلك الشعور المرهف الأصيل باللحن الشعبي ، كل ذلك كان واضحا في هذه الألحان التي نخرج من بين أصابعه ارتجالا • كانت الألحان غنية بالألوان ، مرنة ، معنية ، تتدفق موجات رنانة ، أو تعلو نشيدا جبارا ، أو تنتشر نغمات كئيبة• هي تارة زمجرة العاصفة ، وهزيم الرعد يجري مدويا في الفضـــاء اللامتناهي ، وهي تارة هواء الجنوب يهمهم في العشب ، على الرابية ويغرقك في أحلام حافلة بصور الماضي البعيدة •

وحين توقف عن العزف ، دوت في القاعة الضخمة عاصفة من تصفيق الحماسة • وظل الأعمى أمام البيانو ، خافض الرأس ،يصغي الى هذه الجلبة دهشا • ولكن ها هو ذا يرفع يديه مـرة أخرى ، ويضرب على أصابع البيانو ، فيسكت الجمهور الغفير فجأة •

في هذه اللحظة دخل العم مكسيم الى الصالة • وطاف ببصره على الجمهور الذي تملكته عاطفة واحدة ، وراح يدير أعينه النهمة الملتمعة نحو الأعمى •

وأخذ الأبتر العجوز يصغي وينتظر • انه يشعر ، أكثر من أي واحد بين هؤلاء الناس ، بالدرامة الحية المترقرقة في عزف بطرس • وكان يخشى على هذا العزف المرتجل القوي الذي يجري من روح الموسيقى حرا طليقا ، أن يقطعه ، كما قطعه في السابق،تساؤل مقلق ، يكشف عن جرح دام في قلب تلميذه • ولكن الأصوات كانت تنمو وتقوى وتتسع ، وتزداد سيطرة شيئا بعـد شيء ، وتستبـد بقلوب الجمهور الذي سحره واستخفه فرح واحد •

Twitter: @ketab_n

وكلما زاد العم مكسيم اصغاء ، زاد وضوحا في أذنه دوى نغم معهود في عزف الأعمى •

نعم ، انه هو ، الشارع الصاخب • موجة طاغية ، ضاجة ، مليئة بالحياة ، تجري ، وتتبعثر ، وتتفرق ألوفا من الأصوات • تارة تصعد ، وتارة تهبط فما يسمع منها الا هدير بعيد متواصل ، وتحتفظ في كل الأحوال بنبرة واحدة ، هادئة جليلة صامدة باردة • وكما في السابق ، انطلقت من بين أصابع الموسيقى ، آهة ، أنة ••• انطلقت سريعة ، ودوت في الهواء ، ثم ماتت • وعاد صوت الحياة مرة أخرى ، قويا ، رائعا ، متحركا ، سعيدا ، مشرقا •

لسنا نسمع الآن آهات حزن فردي ، وأنات عذاب من العمى • واخضلت عينا العم مكسيم بالدموع • وجرت دموع على خـــدود جيرانه أيضا •

قال العجوز في نفسه : « لقد تدارك عماه ••• نعم نعم ، لقد استرد بصره ! »

ومع ذلك ، على صفحة اللحن الهادىء ، المنتعش ، السعيد ، الحر ، الذي ينطلق كهواء الحقول لايلوي شيء ، وفي حنايا هــذا الضجيج المتنوع المدوخ ، ضجيج الحياة ، وفوق قاع الأغنية الشعبية ، الحزين تارة ، الفخم تارة أخرى ، كانت تبزغ نغمة حادة أليمة ، ما تنفك تزداد لجاجة وقوة •

فقال العم مكسيم يشجع الموسيقي بينه وبين نفسه : « أحسنت يابني أحسنت ••• اضربهم في قلب مرحهم وسعادتهم ••• »

وبعد لحظة كانت ترنيمة العميان تسيطر وحدها على القاعـــة وعلى الجمهور المفتون •

ـ ت •• ص •• د •• قوا على العم •• يان المسا . . كين •

ولكنها ليست الآن أنة شاكية تخنقها جلبة الشارع • لا • ان

Twitter: @ketab_n

فيها كل ما كان فيها يوم تشنج وجه بطرس من شدة الانفعال ، بتأثير اللحن ، فانقطع عن العزف ، اذ لم يبق له من القوة ما يقاوم به الألم الواخز . ولكنه ظفر الآن على هذا الألم ، وظفر على نفس الجمهور وهو يقول لها كل ما في الحقيقة المسيطرة على الحياة من عمق ومن هول ... انه الليل على صفحة الضياء الباهر ... وانه نداء الشقاء في قلب الحياة السعيدة .

كأن ضربة رهيبة سقطت على رءوس الناس ، كأن أصابع بطرس العنيفة السريعة قد ضربت على قلوبهم فأخذت ترتعش ارتعاش الأوتار . وانقطع بطرس عن العزف ، ولكن الجمهور ما برح صامتا صمتا عميقا .

خفض العم مكسيم رأسه ، وقال في نفسه :

« نعم ، لقد أصبح مبصرا .ذهبت آلامه الأنانية ، العمياءالظامئة، وحلت محلها نظرة صادقة نبيلة الى معنى الحياة . انه الآن يفهم الشقاء الانساني والسعادة الانسانية . لقد استرد بصره ، وسيعرف بعد الآن كيف يذكر السعداء بأن في الدنيا أشقياء ... »

وكان المحارب القديم يزيد خفض رأسه شيئا بعد شيء .

لقد قام بواجبه هو أيضا . لا ، انه لم يعش عبثا . تشهد على ذلك هذه الأصوات القوية التي تسيطر على الجمهور المفتون المسحور .

هكذا بدأ الموسيقي الأعمى

Twitter: @ketab_n